لـــحود

شیرهان مصطفی

مصطفى، شيرهان.
لحود. تأليف/ شيرهان مصطفى.
التصنيف : رواية
٢١ سم ، ١٢١ ص
تدمك : ٨- ٥٩ - ٦٦٤٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨
تدقيق لغوي وإخراج فني وتصميم الغلاف
يوريكا لخدمات النشر

01288627690
eureka4publishing@gmail.com
بالتعاون مع
دار المثقفون العرب للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى
رقم الإيداع : ٢٠٥٣٥

جميع الحقوق محفوظة و يحظر طبع أو تصوير أو تخزين أى جزء من
الكتاب بأية وسيلة من وسائل تخزين المعلومات
إلا بإذن كتابى صريح من الناشر

قال تعالي..

(ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نسُواْ اللهَ فأَنسَاهُم أَنفُسَهُم أُوْلئِكَ هُمُ الفَاسقُونَ(١٩)

سورة الحشر

- يا أبا يوسف.. أين انت ؟ .. دائمًا ما تتركني وحيدة جالسا بحجرتك اللعينةْ، اجلس معي لا تتركني وحدي لقد سئمت شكل الجدران ولم أترك مسلسلًا أو فيلمًا إلا وحفظته.

دائمًا ما تردد أمي هذه الكلمات.. فهي وحيدة رغم وجودنا بهذا العالم الجحود.. الكل لا يبالي بها ولكن عذري معي – كما أعتقد – ولا تجد أمي أمامها إلا أن تفتح نافذة منزلها لتنادي علي إحدي جاراتها للجلوس معها، لتتسامر معها أو لتتباهي بإخوتي وكم تعبت وشقت من أجلهم وأنها تبحث عن زوجة لابنها الأصغر محمد فهو شاب.. وسيم.. جاد.. ومتدين ولكنه بالغربة لتتسارع النساء بعرض الفتيات الجميلات علي أم محمد ليحكوا عن الشاب الوسيم صاحب السيارة والسفر والأموال.. نعم فهكذا حال البشر.

لا تبتعد عني كثير يا قلمي سوف أقص عليك شيئًا من الواقع، ولن أملأ بحبرك اللعين الرعب الآن، فرويدًا يا صديقي فالأيام كثيرة والورق لن ينتهي من العالم؛ لأحكي عن امرأة مكافحة كان جزاؤها الوحدة والعذاب والرعب الذي تملّك من عقلها ودمرني.. لا تنسَ أنها أمي يا صديقي .

«هل تعلم أننا لسنا وحدنا بهذا العالم.. نعم فنحن لا نرى إلا ما أراده الله لنا .....فإذا انكشف الحجاب سنري ما يجعلنا نفقد عقلنا ...لقد شاهدت في التلفاز ذات مرة أن رجلًا يحكي عن زوجته التي قتلها الجان وأخذ طفلها

.. كانت تلد ورأت أمامها قطة سوداء فلم تستطع من ألم الولادة أن تتكلم لتتحول القطة إلي امرأة قبيحة المنظر تذهب عند رأسها وتقول:

- سوف تموتين عندما يبلغ السنة الأولى.. وبعدها سيكون لي.

وضحكت ضحكة شيطانية، قصت الأم على أهلها هذه الحكاية ولكن بطبيعة الحال لم يصدقها أحد حتى توفيت بعد عام من ولادة الطفل في ظروف غامضة، والأنكى كان اختفاء الطفل.

ذات يوم حكت زوجتي عن جارة أم جدتها تروي أن فتاة أحرقت نفسها بسبب أمها لأنها رأتها مع عشيقها بوضع غير لائق، فما كان للفتاة غير الجنون وأحضرت عبوة الكيروسين وسكبتها بالكامل على جسدها وأضرمت فيه النيران حتي ماتت، والسيدة لم تبالِ بما حدث لابنتها، فـتزوجت خطيب ابنتها ولكن — يا صديقي- روح الفتاه جائت بعد زواج أمها تنادي عليها كل يوم.. وفي يوم ما ذهبت جدة زوجتي للاطمئنان على حال السيدة فلم تجبها، فنادت زوج المرأة الذي جاء مسرعًا ليجدوها محترقة تمامًا على فراشها، ولم تتضرر ملابسها أو حتي فراشها ولم يفسر الطبيب سبب الوفاة وبالطبع.. لو فكرنا بالعلم الآن في هذا العصر لفسره الطبيب بالاحتراق الذاتي، أتعلم — يا صديقي- جاهدت مع زوجتي حتى أجعل عقلها يستوعب فكرة الاحتراق الذاتي ولم تقتنع، فزوجتي سيدة جميلة لا تأبه بما يجري بأخبار العالم، إنها على أية حال بسيطة خلوقة وكفى.

سأصمت وأتركك مع أمي لتكتب آلامها.. أتمني أن تشفق عليها مثلي

وتوصل للعالم ألم أمي الحبيبة التي تركتها لأنها كانت تنهرني عن الخطأ، فأصبح كلامها ثقيلًا علي قلبي كأنها صخرة تضعها على صدري فلا أستطيع التنفس.. سامحيني يا قرة عيني... فأصبحتِ الحاضر الغائب يا طفلتي.. أتمني من ربي أن يرحمك لأننا لم نعلم قيمتك وتركنا باب المشقة يفتح جبهته عليك..

لن أبغض أطفالي إذا تركوني يومًا فكما تدين تدان ..

هل تعلم يا قلمي؟.. أنا أتألم لأنها لم تضربني مثل السابق أو تنهرني وتسبني.. هل ستذهبين يا أمي ولن يتبقَ منك إلا اللحود؟.. أعلم أنني متعب لأنها متعبة، لكن قل لي من أين أبدأ أيها القلم اللعين؟ دائمًا تخذلني وتبعثر كلماتي في أرجاء الصفحة وتجعلني أحاول جاهدًا أن ألملمها حتي تكتمل صفحاتي البالية وتفاجئني بفراغ حبرك والكلمات تقف بعقلي المشتت حتي تمتلئ بصعوبة مره أخري وبالفعل أفقد معظم الكلمات ..كل هذا بسببك.. أتعلم؟!.. سوف أكف عن الثرثرة وأنت اسرد الآن ولا تفرغ حبرك فأنا سوف أضع بجعبتك كل أسراري...

اليوم الأول:

ذهبت إلى البيت بعد العمل وتناولت الغداء وجلست أمام الشاشة، بينما زوجتي وأولادي قد خلدوا للنوم لأرى نفسي أمام نساء يرتدين الأسود وأمي على فراشها جالسة تعوي مثل الذئاب، فجلست بمقعد أمامها لأجد نفسي أصدر عواء مماثلًا، فانقبض قلبي وقمت من مكاني لأدخل

حجرة قديمة ليست في منزلنا كأن أمي كانت تخفيها ورأيت سيدة لم أرها من قبل، لكنها بدت لي طيبة، واستخرجت من خزانة بجوارها فناجين من القهوة مرصعة بالذهب الخالص فقلت لها ألا تستخدمهم حتى لا تغضب أمي، وبالفعل لم تستخدمهم ووضعتهم جانبًا وأخذت فناجين سيئة ووضعت بها القهوة لتقدمها للنساء وأعطتني وشاحًا أسودًا لأضعه على أمي، فأخذته لأجد نفسي أمام المنزل وامرأة غريبة الشكل تقف أمامه.. طويلة.. بيضاء.. عيناها حمراوان كالدم.. ويصعد من تحت قديمها دخان ممزوج برمال حمراء فقلت لهاصارخًا:

- اتركيها وشأنها.. لقد تعبت.. ابتعدي عنها.

لم ترد علي فألقيت عليها الوشاح الأسود لأجدها تتلوى كالأفعى .. لأفيق واجدًا نفسي على الأريكة والعرق يتصبب مني كأنني غرقت بماء الشتاء وقلبي تتصارع نبضاته كأنني بسباق لألعاب القوي، فأخذت هاتفي لأطمئن علي أمي لأجد أن أبي يقول لي بأنها نائمة فطلبت منه أن أتكلم معها

فأيقظها وسألتها عن حالها حتى يرتاح قلبي الخائف لتقول لي بصوت متعب:

- لماذا كنت تعوي يا ولدي في عزاء أم علا زوجة نسيبك ؟

- أنا لم أذهب يا أمي.

- كيف يا ولدي؟.. لقد كنا سويًا .. أين الوشاح يا يوسف؟.. قالت لك صديقتي أن تحتفظ به ولا تتركه مع هذه المرأة الخبيثة.

فصمت لأنني لم أجد جوابًا لها.. لأجدها تصرخ كأنها رأت شيئاً أفزعها ثم تدخل أمي من جديد في هذيانها.

ويأخذ أبي الهاتف من الأرض ليقول لي:

- متي ستأتي يا ولدي؟.. لقد ثقل الحمل علي وأنا رجل مريض لا أستطيع تحمل كل هذا وحيدًا؟

- غدًا بعد العمل.

- لا تتأخر يا بني.

وانتهي الحديث وأغلق الخط بدون تحية .. كم أنت مرهق يا أبي..!

آسف يا صديقي لقد نسيت أن أحكي لك أنني ابنها الأوسط وللأسف لم يحظَ بقلب أمه أو أبيه كما كنت أعتقد.. فقد ولدت عاجزًا مصاب بشلل بإحدى قدمي.. أنا لا أعلم لم أثرثر كثيرًا معك أيها القلم كأنك شخص بالغ تجلس أمامي وتحاول أن تمسح دموعي التي تنهال على الأوراق...هل تعتقد بأن حبرك لن يغرق الكلمات أم أتركك أنت والأوراق حتى أهدأ قليلًا....أتعلم..؟! لنكمل يا صديقي.. وآسف أنني وصفتك باللعين من قبل.. فأنت صديقي الوحيد بهذا العالم.

اليوم الثاني:

استيقظت مبكرًا ولم أوقظ زوجتي وأولادي.. ذهبت صامتًا إلى عملي لا أكلم أحدًا حتى أنهيت عملي وكان الوقت بطيئًا لا يمر سريعًا.. أخذت هاتفي الفقير مثلي لأهاتف والدي..

- السلام عليكم.. كيف حالكم يا أبي؟
- أحمد الله يا ولدي علي كل شيء .
- هل أمي يا أبي؟
- احضر يا ولدي وسوف أحكي لك.. لا يصح الحديث بالهاتف.

ذهبت إلي بيتي لأجد زوجتي تقتلني بنظراتها والغضب يملأ عيناها ..

– ما بك؟

– لم جئت بعزاء زوجة أخي وكنت تقول كلامًا غير مفهوم وتعوي مثل الذئاب؟.. لقد فضحت أخي.. هل أخي يستحق كل هذا يا يوسف؟ ألم يساعدنا عندما ارتخت يدا أهلك عنا؟

فتصارعت أنفاسي و تملكني الرعب وقلت:

- حبيبتي أنا لم أذهب.. وأمي مريضة ولا تتحرك منذ ثلاثة أيام ولا نعلم ما بها.

- كفاكم هراءً.. أتستهزئ بي أنت وأمك؟، أنا أعلم أنها لا تحبني لكن لا تحرج أخي وأهلي أمام أهل زوجته.

- يا عزيزتي أتري الحب في عين أحد لي؟

لتنظر لي نظرة أشعرتني بطيبة قلبها وقالت:

- نعم أرى.. أنا وأولادي نحبك.

فتبسمت لها وسألتها سؤالًا ملئ بالاستعطاف لعلها تبعد الجنون من عقلي التائه..

- هل في يوم كذبت عليك؟

- لا.. أنا آسفة، لكن أخي وأمي غاضبين وأنت تعلم أن الأمر صعب.

- نعم أتأسف على هذا يا عزيزتي.

- سأتصل بأخيك لأعتذر له.

- لا لا تفعل.. إنه غاضب وكان يقول كلامًا يضايقني كثيرًا فما كان أمامي إلا أن أغلقت الخط في وجهه.. اتركه يهدأ وسوف أشرح له أنا لاحقًا.. ووقتها نزوره سويًا ليزول سوء الفهم.

أنا حزين يا صديقي لأن زوجتي تُهان ولم أستطع فعل شيء، لأن أخوها يساعدنا وترفض الاقتناع بأنني لم أذهب ، فما كان أمامي إلا أن أتكلم معها بتودد.. يكفي ما حدث لها من مهانة وأنا أعلم كبريائها.

دخلت حجرتي لأرتاح لحين تحضير الغداء، واستلقيت على فراشي وإلا أنني لم أنم .. أقسم لك يا قلمي أنني لم أنم.. على أنني رأيت أمي تأخذني بيدي كطفل صغير بممر ضيق قاتم لنخرج إلى المقابر ويوجد حفرة وحولها نساء عجائز يرتدين ملابس سوداء وكانت أشكالهم مخيفة ويرددن كلمات غريبة ويلوحن بأيديهن حول أمي.. وتوجد امرأة غريبة، إنها نفس المرأة التي رأيتها بحالها الدخان والرمال الحمراء تحت أقدامها ولكن بيدها شيء غريب.. عروس ممتلئة بالدماء والأشواك وشعر أسود وتنظر لي بعين الشر وتقول لي:

- لن تنام أمك.

أفقت لأجد أمي أمامي تقول لي:

- أنقذني يا ولدي.

فقلت لها متحيرًا:

- لم أنا؟!

فلم ترد واختفت، تركت البيت مسرعًا وزوجتي ما كان أمامها غير النداء قائلة:

- يوسف .....يوسف.

إلا أنني لم أجب.. لا أعلم أين أذهب.. يعتصرني الألم من أجل أمي.. يا قلمي أنا ضعيف القلب رغم قسوتها ...فهي أمي.. من ربتني وأرضعتني وحملتني.. لتفعل بي ما تشاء.. يكفي أنها جعلتني رجلا.. أنا أحبك يا أمي ولا أعلم ماذا أفعل كي تسعدين وتنعمين مرة أخري.. يا ليتني كنت مكانك يا أمي، بداخلي صراع ولوم.. أسير والدموع لا تفارقني وأسأل نفسي بأي عذر تركتها؟!. ألأنها تفضل إخوتي علي؟ ..لأنني فاشل أخذت من عجزي وسيلة لأن أتكاسل؟.. ألم تكن زوجتي تقاسي معي لأنني لم ألبِ كل طلبات البيت؟ ..أنا بلا رجولة.. كم مرة ذهبت إلي أمي لآخذ مالًا؟ ... كثيرًا.. وكم مرة تنهاني عن ذلك؟ ... كثيرًا ..كانت تريدني رجلًا ... ألم تتصل بي قبل وعكتها ولم أجبها؟.. كم هاتفًا جاء لي من خالاتي لأكلمها؟ ... نعم يا قلمي أنا جاحد أناني .. أنا تركتها وهيا لم تتركني إلا لأصبح رجلا.. لأجد صديق لي يقطع شرودي وينادني..

- يوسف.. يوسف.. ما بك يا أخي لم أرك يومًا هكذا؟ .. أتحتاج مالًا؟

- لا والله.

وحكيت له ما بجعبتي..فقال متعجبًا:

- أنا أعلم يا يوسف أنها دائمًا غاضبة منك، لكن يا صديقي لا تشق على نفسك ...شفاها الله وعافاها.

- ألا تصدقني يا صديقي؟

- بلي يا يوسف لكنني.. مندهش.

ولم يكمل كلامه فقلت له:

– سأنصرف الآن يا صديقي فأنا متعب.

لكنه أمسك بيدي ليكمل حديثه ببعض من الكلمات أدخلت بنفسي بعض الراحة.

- ما رأيك أن تذهب لعالم لعلك تجد عنده إجابة؟

فسألته قائلًا:

- هل تعلم أحدًا ؟

- نعم.. اذهب إلي والديك وأنا سأتصل بك.

ابتسمت ممتنًا له عندما رأيت بعينه عطفًا ومودة، أحسست بأن الله لن يترك عبدًا يقاسي أبدًا..

طرقت الباب ففتح أبي وقال:

– ادخل يا ولدي.

وصمت ولم يتكلم بينما أمي بحجرتها نائمة.. ذهبت إليها لكنها بعالم آخر وما كان أمامي إلا الخروج والتحدث مع والدي لأجد ملاذًا لي

ليرتاح عقلي..

- والدي.. ألم تحضر طبيبًا؟

- يا بني.. أختك استدعت سيارة الإسعاف لنقلها إلى المشفى وقال لا يوجد شيء عضوي.

- لكن ما يحدث لها..بالتأكيد له سبب علمي.

- لا أعلم ماذا يحدث لها يا بني... اسمع يا بني سأقص عليك قصة ولكن لا تقاطعني حتي انتهي.

- تفضل يا أبي.

- ذهبت أنا وأمك لشراء مستلزمات للبيت و انتهينا من التسوق وأمام المنزل تعثرت أمك ودخلنا البيت لأجدها تنزع ملابسها عنها وتصدر أصواتًا غريبة بينما عيناها تححظان بقوة وتجلس أمام المرحاض كأنها شخص آخر وتمسك يديها وتفك شعرها وتأخذ من بولها على جسدها وشعرها.. كنت مشمئزًا مما تفعله فاتصلت بأختك وتعاملت أختك معها بعنف وشدت يديها وأدخلتها حجرة خالك، عاملتها كأنها فاقدة للأهلية وتعجبت من عنفها، لكن يا ولدي ما باليد حيلة، فأنا كما تراني! المرض يأكل مني وأغلقت أختك عليها الحجرة أكثر من ساعة وقالت لها إن لم تعقلي سأتركك هنا للأبد.

وما كان أمامي إلا الاستماع يا صديقي وعدم مقاطعته رغم الحوار وما يحمله من قسوة عوملت بها أمي لكنني غضبت رغمًا عني وصحت قائلًا:

- وكيف لم تتصل بي؟

- أتصل بك؟! .. أنت لا تجيب أحدًا يا يوسف .. ذهبت وقاطعتنا .. واتصلت الآن وجئت يا بني لا أعلم ما أقول لك.

أجد نفسي صامتًا لا يحضرني سوى ما رأيته.. لأجد أبي يقطع الصمت قائلًا:

- يا بني لم أستطع أن أتكلم مع أخيك فلديه ما يكفيه.. وقل لي كيف ستأتي و أمامك أكثر من ساعتين؟.. سأتركها طوال الوقت وهي عارية ونحن بعز الشتاء وأخيك سيأتي من غربته؟

ـ لا يا أبي .. سامحنا الله على تقصيرنا.

فصمت ونظر لي بعين تغرقها الحزن وأكمل مسترسلًا كأنه يخشى أن يفقد كلمة أو عبارة:

– أخذتها أختك إلي المرحاض للاستحمام وقصت أجزاءً من شعرها.. لأنه كان متشابكًا بشكل غريب .. وتركناها نائمة، ومن يومها وهي هكذا لا تأكل إلا القليل.

- أين حنان؟

واجه كلامي بضحكة ساخرة وقال:

- سوف تنتقل من هنا.

فصعقت والغضب قد تملكني:

- تترك أمي؟! .. أمي باعت بيتها التي عاشت به عمرها و قامت بترتيب معاش مبكر لأجلها.. حتى تحافظ هي على عملها وبيتها واشترت شقة بجوارها فكيف تتركها الآن وهي تحتاجها؟

- يا بني أبناء أختك كبروا وقد فتح الله على زوجها ولم تعد تحتاج أمك الآن.

فوجئت بأمي تناديني:

- يا يوسف منعوا عني الهاتف.

فنظرت إلى أبي وقلت له مندهشًا:

- لماذا يا أبي؟

- أمك تتصل بالناس وتقول كلامًا لا يصح أن يقال على أختك، فأخذت أختك الهاتف منها.

- كيف هذا؟ .. أستأذنك يا أبي بالهاتف.

- إنه بحجرتي فوق مكتبي.

- ألم تتصل بمحمد؟

- لا.

أخذت الهاتف وأعطيتها إياه لأجدها تتصل بأختي و بعينيها حزن لتقول لها:

- تتركينني وحيدة وتذهبين بعيدًا عني يا حنان؟ .. ماذا فعلت بك يا ابنتي؟ لم تتركينني بالحجرة وحيدة ؟.. لمَ لم تحضنيني؟.. هل تركتك مرة تبكين وحيدة؟.. كنت في عالم آخر يا ابنتي.. لمَ لم تسأليني ما بك ؟

أرى أمي متعبة.. متألمة، بينما حنان تكلمها بقسوة .. أين كانت هذه القسوة عندما احتاجت حنان لأمي ؟! أطاحت أمي بالهاتف أرضًا فأخذته و قلت لها:

- لم فعلت هذا يا حنان بأمك؟.. لم هذا الجفاء؟ هل تستحق أمك هذا منك؟

أجابتني بدم بارد قائلة:

– قل لها.... كفى تمثيلا.. لن أرجع عن قراري و لا تأخذ كلامها على محمل الجد.

فلم أرد عليها وتذكرت قسوتها علي أنا أيضًا .. أنا فقير يا صديقي، كنت أقبل المساعدات من إخوتي.. ليست زوجتي فقط التي تمد يدها لأهلها.. أنا أيضًا أفعل.. لكن أهل زوجتي لا يعيرونها بما تأخذ وأجد الاحترام منهم .. يا صديقي أنا أقل كثيرًا من إخوتي تعليمًا والسبب ليس قدمي فحسب، بل حظي السيء لأني أمرض عند كل اختبار.. كان القدر يسوقني إلى ما أنا به .. سأصمت وسأجعلك الآن أيها القلم تكتب بحبرك الأسود كلامي على صفحاتي وتمزج معها ألم الفقر والعوز.

هل تعلم يا صديقي؟.. جاءت أيام العيد ولم يكن معي مالًا فما كان أمامي إلا الذهاب إلى أبي وكانت أختي حنان معه، فسمعتني وأنا أطلب منه مالًا لشراء طعام وأشياء أسعد بها صغاري لأجده يرفض بسبب قلة معاشه، لأجد حنان تقول لا تحزن يا أخي تعال معي للتسوق، وبالفعل ذهبت معها و اشتريت طعامًا وأشياء لصغاري وكنت فرحًا للغاية، لا يا قلمي انتظر لا تحكم عليها بالطيبة.. هل تعلم أن حبرك الأسود مثل عقلها الأسود.. اعذرني يا صديقي مرة أخري لأنني أسئ إليك، أخذنا الأشياء وحملت أنا الكثير منها والبعض الآخر حملته لأجدها ترمي ما بيديها بالطريق وتقول لي جملة اعتصرت رجولتي وأشعرتني بأنني لا أستحق أن أكون رجلا.

- أشتري بمالي وأحمل لك أيضًا؟.. احمل أنت.. هل أنت عاجز عن حمل الأشياء أيضًا؟

وهي تنظر لي كأنني شحاذ أتسول منها.. لا أعلم لم حملت الحقائب وقتها.. هل خشيت على زوجتي من الانكسار وقد هلّ علينا العيد؟.. كانت الأشياء كثيرة.. أكياس مبعثرة حملتها وحكيت لأمي وأنا أتألم، ولكن ما باليد حيلة.. صمتّ وبكيت بداخلي لأجدها ترسل لي ملابس قديمة لزوجتي، نعم فأنا فقير وزوجتي ترتدي عباءة سوداء واحدة أحضرتها لها أمها ولم أستطع أن أتكلم وهي تستخرج من جيبها نقودًا للموصلات.. نعم صمتّ يا قلمي! ولم أتكلم . فهي تريد كسري حتي لا يرتفع صوتي أو عيني عليها، فهي الكبرى، تأخذ الكثير من حب أمي وقرارتها الأهم لدى أمي..هي طبيبة ناجحة... أنت تراني لم أذكر والدي كثيرًا للأسف يا صديقي من يحكم بالبيت هو أمي وليس أبي فهي الآمر الناهي.... هل تعلم يا قلمي؟! إنني تزوجت زوجتي.. ليس لأنني أحبها فأنا لم أحب فتاه من قبل، فهي من أخبرتني.. كانت تعمل معي بنفس المصلحة الحكومية بعقد مؤقت أحبتني لا أعلم لماذا.. تركت وظيفتها من أجل أن تبقى معي.. أسألها دائمًا لم أنا؟.. فأنت متعلمة تستحقين ما هو أحسن.. لا أنكر بأن أهلها رفضوا في بادئ الأمر لكن عندما رأوا عائلتي اقتنعوا أنه سوء الحظ يلازمني لا أكثر متمنين مني إعادة الثانوية العامة وأنا وعدت بذلك، لكن حمل الحياة والزواج والأولاد شد ذراعي إلي أسفل وما أحلي هذه الشدة ...هل تعلم أنني الخجول عديم الشخصية؟.. هل تعلم أنني أشفق عليها؟ لأنها تزوجت رجلًا عاجزًا حتى عن الكسب، فهي كانت تستحق ما هو أحسن.. لا أعلم لماذا الفقر يدخل داري أنا فقط ؟ ولم

زوجتي تحبني ؟ ولا أنكر بأنني أصبحت أحبها أكثر من نفسي..

أخرجتني أمي من شرودي وهي تتكلم بصوت مملىء بالتعب كأنها مشت أميالًا وتقول:

- لا تحزن يا ولدي أنت شقيت كثيرًا.

نعم أيها القلم لقد أفاقت.. لا تفرح يا صديقي كثيرًا، جاءت أختي إلي أمي لتتصنع دموع الحزن وهذا ما عرفته بعد ذلك عنها أنها ممثلة بارعة.. لا تتعجل فـأنت تشاهد معي مشهدًا بمسلسل أو مسرحية بطلتها بارعة التمثيل وأنا مثلك أشاهد لا أتكلم لا أعبر.. كنت أعتقد يا صديقي أن أمي سوف تنقلب علي مرة أخرى.. لكن ساء ظني هذه المرة.... وجدت أمي تقول:

- تعال.. اجلس بجواري يا يوسف.

فما كان أمامي إلا أن أذهب بجوارها وأنا فرح كطفل صغير ينتظر أمه أن تدلله حتي يشعر بالأمان ....وأحضر أبي وهو يتكئ على عصاه الخشبية طعامًا خفيفًا.. لا تتعجب فأبي يحضر كوب الماء إلي الطبيبة وهي تجلس وتضع قدمًا على قدم ...لترى الدلال يا صديقي .. أطعمت أمي بيدي ...نعم أكلت من يدي أتصدق هذا؟.. كنت فرحًا.. كنت أطعمها كطفل صغير ... استيقظت من ذهانها بتعب يشق عنقها لتكلمني بحبٍ لم أحس به من قبل

- اذهب لبيتك يا ولدي.

لتوجه وجهها الجميل سريعًا لأبي وتقول له:

- أعطه يا أبا (يوسف) مالًا وطعامًا ليعطيه لزوجته.

ليذهب أبي بعصاه الخشبية ليحضر ما طلبته أمي .. أنت تشمئز منا يا صديقي ...أعلم أننا شبه الطعام العفن ..لم تتقن أمي صنعه.

أكملت أُمي كلامَها و(حنان) جالسةٌ لا تتكلم..

- لا تتركني يا (يوسف) سوف تجيئ العتمةُ، وأخشي أن أكونَ وحيدةً وأنت ترى أباك يأكل المرض عظامَه.

- لن أتركك يا أمي.. شفاكِ اللهُ وعفاكِ.

- لا تتأخر غدًا فلنا كلامٌ يا ولدي.

- سأتصل يا أمي بمحمد.

- لا ليس الآن يا ولدي.

لتنظر أختي لي ولأمي .

بعد تجاهلِ أمي لها، رغم كلمات أمي بالهاتف المملؤةِ بالعتابِ لها منذ قليلٍ لتقولَ لي:

- أتحتاج مالًا يا (يوسف)؟

- لا.. الحمدُ للهِ.. زادك اللهُ من فضله.

نعم السعادة والحزن يمتزجان معًا، لا تتعجب يا صديقي فهذا حالُ البشر، ذهبت إلى قُرةِ عيني أمّ صغاري، وحكيت لها ما حدث لأجدَها بكلِّ طيبةٍ تقول:

- أتحتاج أن أجيئ معك وأتركَ الأولادَ لأمي..؟

- لا يا قرةَ عيني.. حافظي على ما بأحشائك والصغار.

كم تُعدُّ المرأةُ مخلوقًا ضعيفًا يحتاج إلي كلمةٍ رقيقةٍ لتشقَّ بها الجبال.. كلمةٍ تنبعث من القلب كي تُحسَّ بك وتجعلَك ملكًا فوق رأسِها الجميل.. لتغمرَك بحنانٍ لا يوصف... أتعلمُ يا قلمي..؟ لقد أحببتها بكلِّ وصفها ولم تملأ عيني نساءُ الأرض؛ فهم أمامها مجردُ غبارٍ.. عندما أغادر بيتي أغضُّ بصري.. هل تعلم..؟ أنا لا أعلم ما شكلُ أختِ زوجتي أو زوجةِ أخيها لا تتعجب؛ فأنا خجولٌ يا صديقي..!

انتهي اليومُ بعد عناءٍ لتعطيَني زوجتي قطعةً من الفاكهة.. أبي لم ينسَ أنْ يضعَ بعضَ الفاكهةِ بالحقيبة.. أعتقد بأنَّ أبي أعطاني خزين البيتِ كلَّه..!

اليوم الثالث

وفي الصباحِ وقبل الذهاب لعملي تركت زوجتي وأولادي، وأعطيتها كلَّ مرتَّبي ونقودَ أبي، ولم أترك الا مواصلاتي وقليلًا من النقودِ فرحت زوجتي جداً، لكنها متألمةٌ لبُعدي عن البيت فنحن لم نفترق من يومِ زواجِنا..

لكنني أحسستُ أنَّ الفرحةَ دخلت بيتي بعد مُعاناتٍ مع الفقرِ لا توصف، فعادةُ أمي أن تُخزِّنَ في بيتِها كلَّ ما لذَّ وطاب، وهذا ما طال بيتي أيضًا فأعطاني والدي من اللحومِ الحمراء والبيضاءِ وكنت فرحًا جداً؛ فإنهم أحسوا بي وإنَّ أطفالي سوف ينعمون ولو حتي لفترةٍ.. لا يهمُّ.. أنا أتكلم كثيرًا عن عطاءِ أمس، لكن سامحني فأنا فقير..

ذهبت إلى عملي وخرجتُ مبكرًا لأذهبَ لوالدي، طرقت البابَ وأنا أُحضِّرُ الطعميةَ الساخنةَ لآكلَ مع أبي فكان فرحًا جداً فقال لي:

- لم آكلها منذ فترةٍ طويلةٍ.. أنت تعلمُ أنَّ أُمَّكَ كانتْ تصنعها بيديها .
- بالعافية يا أبي
- كيف حالُ اولادِك
- الحمد لله
- هيا لنأكلَ وأذهبَ قبلَ صنعِ (الشاي) فأنت تعلم معنى (الشاي) معها يا ولدي
- نعم يا أبي

كنت أُحسه سعيدًا برجوعي إليهم بعد فترةِ غيابٍ طويلةٍ تتعدى العامين وأكثرَ.. سامحني يا الله.. أنت تلومني ياصديقي الآنَ، ولكن

توقَّفْ.. لا تحكم عليَّ بالباطلِ؛ فسوف أقصُّ عليك ما حدث واحكمْ يا صديقي:

كنت عند أُمّي أطمئنُّ عليهم لأجدَ زوجَ أُختي يتناولُ طعامَ الغداء، فسلَّمتُ عليه ودخلت الشرفةَ حتى ينتهي من طعامِه، وعند انتهائه دخل الشرفةَ ليتبادلَ الحديثَ معي ليتباهى بعملِه وسيارتِه الجديدةِ، وكنت أُبارك له فدخلتْ (حنان) وهو يتكلَّمُ عن سيارتِه فقالت

- قل ماشاءَ اللهُ يا (يوسف).. الحسدُ ذُكرَ في القرآن..!

- أنا أتمنَّى لكِ الخيرَ.. لِمَ أحسدكِ..؟! وعمومًا ماشاء اللهُ، وزاد الله وبارك لكما ..

فخرجتُ من الشرفةِ لأجدَ أُمي تقولُ لي:

- جئت لتأخذَ مالًا، فنحن لا نراك الا لطلبِ المالِ..!

- لا يا أمي.. جئت للاطمئنانِ عليكم .

فضحكت وقالت لابنِ أُختي الصغيرِ وهي تضحك أعطيه جنيهًا من أبيك..!

يا الله.. لِمَ تفعلينَ هذا يا أمي..؟! لأجدَ الغضبَ تملَّكني عندما وجدتُ الصغيرَ يقول لزوجِ أختي وهو يغنّي كلماتِ أمي: خالي يريد جنيهًا من أبي.. خالي يريد جنيهًا من أبي.. عاقبتُ

الطفلَ على فعلتِه..!

نهرتني (حنان) وقالت لي: أنا لا أسمح لك بأن تتكلَّمَ مع ولدي هكذا.. لأجدَ زوجَ أُختي يستخرج خمسين جنيهًا ويعطيها لي فقلت له:

- لا.. أشكرُك كنَّا نضحك مع الولدِ أنا وأُمي..

- تضحك..! خُذ؛ فأنا أعلم بحالك..!

لتضحكَ (حنان) وأُمي، وأبي ينظر غاضبًا ليقولَ لي اذهب يا (يوسف) إلي بيتك؛ فحلفتُ بربِّ العبادِ أن لّا أدخلَ البيتَ مرةً أخرى وذهبتُ مسرعًا تاركًا يدَه ممتدةً بالمالِ.. فقال عندَ خروجي من البيتِ ألا تعجبك الخمسونَ جنيهًا.. يا لك من رجلٍ خالي الجيبِ مغرورٍ..! ومرَّ الوقتُ ياصديقي.. المهمُّ ياصديقي: دعني أُكملْ كلامي لك.. أنت دائمُ التعجبِّ من حالِ البشرِ وتشتت عباراتي.. اجعل كلماتي غيرَ مبهمةٍ.. ليقرأَ ما ستقع أوراقي بيدِه كلماتٍ سهلةَ الفهمِ.. المهمُّ.. تناولنا الطعميةَ الساخنةَ والشايَ الأحمرَ بالنعناعِ الأخضرِ بشرفةِ المنزل، وأبي يفكِّرُ وأنا معك ياصديقي ندون الآلام..! لنجدَ البابَ يُطرقُ لتدخلَ سيدةٌ ملابسُها المتردِّيةُ تدلُّ على أنها امرأةٌ فقيرةٌ وأبي سمح لها بالدخول لتجلسَ..! استأذنتْ أبي للدخولِ على أُمي، فسمح لها، ودخلتُ معها وهي لم تعترض.. لا أرى ما يحدث لأجدَها تأخذ ورقةً بيدِها لتصنعَ عروسًا وبدأت تُتمتِمُ

ببعضِ الكلماتِ، ووجدتُ أُمي قد حدثتْ لها بعضُ التشنُّجاتِ..
فأمسكتُ أُمِّي من كتفيها لأَجدَ المرأةَ العجوزَ تصرخ في وجهي قائلةً:

- اتركها ولا تلمسها مرةً أُخرى؛ إذا لم تستطع فاخرج من الحجرةِ واجعلني أُنهي ما بدأتَه، وسوف تُفيق قريبًا.. لا تتعجَّل ولا تتألم فألمها أكثرُ..!

وبالفعلِ وجدت أمِّي تطلب الماءَ، فأعطيتها الماءَ، وكانت تقرأُ تلك السيدةُ من ورقةٍ بين يديها على قارورةٍ بها ماءٌ، وعند انتهائها وضعت الورقةَ في الماءِ ورشَّت على أركانِ الحجرةِ وفي البيتِ كلِّه بالماءِ إلَّا الحمامَ لم تدخله وأخذت باقي الماءَ وغسلت به وجهَ وأطرافَ أمي وجعلتها تشرب منه قليلًا، وقالت لأمي:

- كيف تستطيعين أن تتحمَّلي كلَّ هذا على جسدك النحيل..؟!

فطلبت مني أن أقصَّ عليها ما حدث، فحكيت لها ما حدث؛ فالأيامُ الماضيةُ وما كان منها إلا أن تطلب كوبًا به ماءٌ وملحٌ وخلٌّ فقلت لها:

- لماذا..؟

لتردَّ متعجبةً من أمرها:

- افعل يا ولدي ما أقوله لك ولا تسأل كثيرًا

و قرأت على الماءِ وطلبت مني أن أضعَه بجوارِ أمي وألَّا أرميَه في البيتِ لمدةِ يومين، وأبي ينظر ولا يتكلم وقد حاول أبي أعطاها المالَ ولكنها رفضت وقالت لي:

- لا تخشَ يا ولدي؛ فستصبح بحالٍ جيدٍ غدًا بإذنِ الله، ولكنها تحتاج من هو أقوى مني فسامحني يا ولدي

- تُرى من نُحضر..؟!

- لا أعلم

- أنا أعطيتُها المسِكِّنَ أم العلاجَ؛ فهو من عندِ الله.. اسأل يا ولدي، وسيُرشدُك اللهُ للصواب.

- من أَحضركِ..!

- أمك..!

نظرتُ لها بعينِ الاندهاش وقلت لها:

- أُمي مريضةٌ ولم تتكلم بالهاتفِ مع أحد

فقالت لي وهي تنظر بعينٍ شاردةٍ.

- الأرواحُ يا بُنيَّ تتقابل..! غدًا ستفهم.. المهمُّ لا تترك أمَّك وسوف تجد من يُعينك، فلا تتعجَّل؛ فكلُّ شيءٍ بإذن الله.. فنحنُ لا نعلم إلّا القليلَ من علمه، فخرجتِ السيدةَ من المنزِل

بعد أنْ أعطاها أبي بعضَ الطعامِ الذي قبِلته بعد إلحاحٍ من والدي..!

شردتُ كثيرًا واستلقيتُ على الأريكةِ بجوارِ أمي لأجدَها تنادي.. فأجبتُ نداءَها

- ماذا تريدين يا أُمي..؟

- أريد أن آكلَ يا ولدي..!

فرحت وأحضرتُ لها طعامًا وأطعمتُها كابنتي الصغيرةِ، وضحكتْ معي كثيرًا وقالت لي كيف أقسو على أحنِّ قلبٍ..؟!

فابتسمتُ وسألتها ماذا حدث يا أمي..؟ فقالت:

- لا أعلم يا ولدي..! فعند عودتي مع أبيك أحسستُ بأنَّ روحي فارقت جسدي، وأني أرى نفسي وكأنَّ روحًا أخرى دخلت في جسدي تملَّكته وتفعلُ به ما لا يُوصف، وفجأةً كأنَّ روحي رُدَّت إلى جسدي..! لا أرى أختَك تعاملني معاملةَ المجانينِ؛ فهي لم تحترم ما أنا فيه.. لم تسألني حتى ما بي.. لم تتكلم معي.. شدت يدي بقسوة وأحسستُ بأنَّ عظامَ يدي تُخلع من صلبها..! وهي تؤلمني إلى الآن يا ولدي لكنني أُحركها وهذا ما يطمئنني..

- الحمد لله يا أمي

– أتعلمُ ماذا رأيتُ.. رأيتُ بعضَ من ماتوا لي.. أُمي.. أبي.. عمي.. واقفين يشاهدون ما تفعلُه (حنان) وأنا أبكي خائفةً، وهناك رجلٌ غريبُ الشكلِ لكنه كان معهم يُطمئِنُ قلبي الخائف، ويقول لي لا تبكِ إنَّ الله أحنّ.. لا أجد أمي تمسح بيديها علي راسي وتقول لي لا تخاف أنا معك يا ابني.. وأبي لا يكفُّ عن قول: اتركها لترتاح.. لا تتعجب إنها رفيقةُ دربِه..! ما يكرمهما إلا كريم وما يهنهما إلا لئيم..! لتكملَ كلامها ناظرةً بعينِ المودةِ لأبي: أتعلم يا ولدي كما تدين تدان، أنا من نهرتُ أمي وتعصبت عليها وأغضبتها، لكنَّ الله يعلم انها لم تنل مني مثلما نُلته من (حنان) وما تبقَّى من عمرِها كنت تحت قدميها.. إنَّ عقلي سيشتُّ يا ولدي لما فعلتْ (حنان) هذا بي..؟ لِمَ ليس بقلبها عطفٌ عليَّ..؟

نزلتُ على ركبتيَّ لأُقبّلَ قدميها وأقول لها لا تخافي يا أمي وأنا معك ولن أتركك..!

لتبتسمَ وتقولَ لي:

- سامحني يا ولدي لقد افتخرت بإخوتِك ولم أفتخر بك بسببِ عملِك البسيطِ

- لأنني فرَّاشٌ يا أمي..! أُحضِرُ الأوراقَ والشايَ للموظفين.. الحمد لله على نعمته.. سامحيني لأنني لم أحقق لك ما تمنيتيه..!

- لا يا ولدي.. العمل لا يُقلِّلُ من شأنِ صاحبِه.. لكن.. سامحني يا ولدي علي قلَّةِ عقلي.

- لا تتأسفي كثيرًا.. الحمد لله على كلِّ شيءٍ.

اليوم الرابع:

استأذنتُ والدي للذهاب إلي العملِ؛ فقال لي أبي مُعبِّرًا عن حبِّه لي :

- لتذهب لزوجتك بعد العمل

فقلت له معبِّرًا وحزني معي لأني سأتركهم بمرضهم وحدَهم..

- سامحني يا أبي.. يجب أن أطمئنَّ على الصغار

فقال لي مبتسمًا وبيده بعضُ النقود:

- نعم.. الله معك.. خذ هذه النقودَ واشترِ طعامًا وحلوى لأبنائك، فوجدت نفسي أقول له:

- لا.. الحمد لله.. الخيرُ كثيرٌ يا أبي..

- أمسِك يا ولدي

- سأحضُر غدًا بعد العملِ.. لن أتركك يا أبي

فابتسم لي ابتسامةً غادرتُ على إثرِها وأنا سعيدٌ لأنَّ أمي استعادت توازنها..

أنهيتُ عملي في الساعةِ الرابعةِ، فوجدتُ هاتفي يرنُّ والمتَّصلُ بي أخي ويقولُ لي

– ألمْ تشترِ محمولًا حديثًا لأتواصلَ معك عليه كيفما نشاء..؟

فقلت له:

- والله يا أخي ما أملكه من نقودٍ بالكادِ يكفي للبيتِ وليس هناك فائضٌ

فضحك وقال لي:

- سوف يأتي صديقٌ لي لي إلى القاهرةِ مساءَ اليومِ وقد أرسلت لك معه هاتفًا

ففرحتُ جداً وشكرته

فقال لي متلجلجًا:

- هذا طلبُ أمي.. فقد كلمتني عندما غادرت صباحًا وطلبت مني هذا وحظُّك يا أخي... صديقًا لي أراد بيع محمولَ زوجتِه؛ فلم يعُد يعجبُها ورغبت في تغييره فاشتريته على الفورِ حتي لا أتأخَّرَ على زميلٍ لي سوف يغادر قبل صلاةِ الظهرِ فأعطيته الهاتفَ فخذ رقمَ هاتفِه يا أخي .

وبالفعل أخذتُ رقمَه، وكذلك قال لي:

- أرسلت لك نقودًا معه لتشحنَ وتشتري ما يلزمك.. أحسستُ بأنَّ الدنيا تضحك لي وأنَّ الله يريت عليَّ، وبالفعل انتظرت مع

زوجتي وأولادي حتي اتَّصلتُ بالرقمِ في حدودِ الساعة العاشرة، فقال لي زميل أخي: إنَّه جاء من ساعةٍ واحدةٍ وسوف ينزل لأجلي لأنَّ (محمد) يريد أن يكلِّمُني على وجهِ الضرروةِ.. نعم أخي رئيسُه بالعملِ ولن يكسر له كلمةً.. هل ترى أنَّ الغرورَ يتملَّكُني...؟ لا.. أنا آسفٌ لنفسي قبلك يا صديقي..! أعوذ بالله من غرورِ النفس.. وبالفعلِ قابلتُ الرجلَ بكافتيريا بأحد الأحياءِ الراقية، وكنت خائفًا من الفاتورةِ وإذا به يستخرج بعضَ النقودِ من جيبه ليقولَ لي:

- أنا اشتريت لك خطًّاً بفاتورةٍ شهريةٍ يا أخي.. فإنها هديةٌ بسيطةٌ مني لك

- أشكرك يا أخي، ولكنني أملكُ خطًّاً

- لا يهمُّ يا أخي.. إنه فاتورة وبه باقةٌ للإنترنت لتستطيعَ أن تُكلِّمَ (محمد) وكلَّ من تحب على راحتِك، والهاتفُ به شريحتانِ.

وإذا بالرجل يجلس بجواري ليعلَّمني كيف أفتح وأُغلقَ الجهازَ، وكيف أستعمله وأُحمَّل عليه البرامجَ الحديثةَ وأُرسل طلبَ الصداقةِ لأخي على أحد مواقعِ التواصلِ الاجتماعيّ، وبالفعل تحدثت مع أخي على هاتفي المحمولِ الجديدِ شاكرًا له ولصديقِه، وأخبرتُه بما فعله معي؛ فأعطيت لصديقِه الهاتفَ وشكرَه فقامَ أخي كذلك بشكرِه.. فردَّ صديقُه ردًّاً جميلًا لا أنساه ما حييت:

- تهادوا تحابُّوا..

واستأذنت الرجل متمنياً لهاإجازةً سعيدةً له، وقمتُ بإخراجِ بعضِ النقود للحساب لكنَّه رفض بشدةٍ وقال الجملةَ نفسَها.. تهادوا تحابوا..! وذهبتُ إلى بيتي وأخرجتُ هاتفي لتنظر له زوجتي مبتسمةً تتفحَّصه كأنها قطعةٌ من الذهب متعجبةً منه؛ فضحكتُ عليها وعلى نفسي.. فقالت لي:

- أتضحك عليَّ..؟! إنَّ شاشته كبيرةٌ.. وأخي معه مثلُه.. فابتسمتُ لها

- أترغبين فيه..؟

- لا.. والله.. زادك اللهُ من فضله.. أنت تحتاجه لتكلِّمَ أخاك، ويمكن أن يغضبَ إذا أخذتُه منك.. كفانا فرقةً..!

فابتسمت لها وأعطيتها نقودًا؛ فأنا لا أحتاج إلى شيءٍ آخر.. واللهُ أعلمُ متى سيشرفُ بيتُنا بضيفتِنا الصغيرةِ.. وتركتُ في جيبي نقودَ أبي..

صباح اليوم الخامس

أنهيتُ عملي وذهبتُ إلى أمي فوجدتها مستيقظةً وبصحةٍ جيدةٍ، ففرحتُ كثيرًا لذلك، فبادرتني بقولِها:

- تعال يا (يوسف) اجلس بجواري؛ فجلست كالطفلِ وبدأت

الحديثَ عن (محمد) وهديته لي فقالت:

- أنت تستحق الخير كلَّه يا ولدي... سامحني علي جفائي

فقلت لها

- لا تطلبي السماح كثيراً أمَّاهُ، فأنا أسامحك من قلبي ويعلم ربي

فقالت لي والحنينُ يملأُ صوتَها:

- أردت يا ولدي أن صنع منك رجلا..! أنا قاسيةٌ، و لكنَّك لا تعلم ما هو السبب..؟ أبوك طيبٌ جدًا يا ولدي، والعالمُ ينهش الضعيفَ؛ فكان يجب أن أكونَ أنا الشرسةَ حتى لا يلتهمَ عائلتي أحد.. خشيت عليك أن تسوقَك امرأةٌ..! فما كان أمامي إلا الجفاء عليك..! ولم أرَ كم كُنتَ تُعامل زوجتك برحمةٍ و رجولةٍ.. ! جئت لتمدَّ يدك لنا حتى تعفَّها وترفعَ من شأنِها أمام نفسها ولم أفهم إلابعد حينٍ.. كم كنتُ غبيةً..! فأنت تكلِّمها بعينك وتفعل ما تريده، حتي الحذاءُ تعطيه لك بالحب.. أنت جعلتها خادمتَك بالحبِّ رغم تعلمها.. جلست لأجلك لأنها تحبك حتي تكونَ مثلك.. فكم أنت ذكيٌّ.. أنا ربيتُ رجلا

- وأنا أحترمها وأُتوِّجُها فوقَ رأسي فهي أمُّ أبنائي وأرعى الله فيها.. إنَّ الله هو من وضع المحبةَ وأعطها العقلَ والكبرياء.. أهمُّ ما في الدنيا يا أمي الاحترام.. أتعلمين يا أمي: إذا ضاقت بي الدنيا

لا أذهب إليها لآخذَ منها مالًا ولا أطلب منها أن تذهب لا أهلها؛ فأنا أمدُّ يدي للغريب ولا أمدُّ يدي لأمرأةٍ.. لقد تعلمت من (حنانِ) هذا

فضحكت لي وقالت:

- ما زلت تتذكر يا ولدي

- نعم.. أنا متعبٌ يا أُمي.. الفقر ملازمٌ لحالي لولا المرتبُ الشهريُّ من أبي (وفاء) بجوارِ مرتبي لتسوَّلتُ الناسَ..!

- تصدَّق لله يا ولدي

فنظرتُ لها بتعجبٍ

- كيف..؟ المرتب قليل

- القليل عند الله كثيرٌ.. جرب.. وادعُ لي ...

- أتعلمين يا أمي كم تحملتِ أنت وأبي الشقاء في تربيتنا.. أنا أذهب للعمل لأحضرَ المال القليل، وزوجتي تشقى بالمنزل وتدبر أمورَ الحياةِ وتربيةِ الأولاد..

- أنا كنت أعمل أيضًا يا ولدي حتي أُلبِّي طلباتكم..

- نعم.. هذه قدراتٌ يا أمي.. (وفاء) تخشى علي أولادِها من كلِّ شيء

- نعم.. بارك الله لها.. تربيةُ الأولاد ليست بالهين.

فوجدت بيدها علاماتٍ زرقاءَ فقلت لها

- ما هذا..؟

فقالت:

- أُختُك عندما أمسكت يدي في اليوم المشؤوم.. يدي تؤلمني يا ولدي

فقلت لها:

- يجب أن نذهبَ للطبيب

- لا.. الألمُ يزول بالمسكِّن وما دامت الحركةُ تسكنها لا تبالي.

- لكن يا أمي.. إنَّ أبي متعبٌ من خدمات البيت

- نعم يا ولدي.. سأكلِّم جارتي لتحضرَ لي مراعيةً لي وللمنزل

- نعم هذا أفضلُ حلٍّ يا أمي..

فسألتُ نفسي: هل ستوافق (حنان) أن تساعدني بدلًا من مراعية.. فنحن أولى بمراعاتها هي وابي..

واتصلت بها وطلبت منها أن تفرّغَ بعضَ الوقتِ لوالدينا لكنها ردت ردًّا كلُّه جفاءٌ وغباءٌ..!

- السلام عليكم.. كيف حالكِ يا أختي وحالُ زوجِكِ وأولادك

- أحمد الله.. أتريد شيئًا

- نعم.. أتكلم معك بعضَ الوقت

- اختصر الحوارَ.. فأنا في عملي..

- نعم.. أبي متعبٌ من خدمةِ أمي.. ما رأيك في أنْ نقسِّمَ الوقتَ بيننا حتي تشفى أمي

لتردَّ عليَّ بشراستِها

- لقد تحملت همَّهم عشرةَ أعوامٍ.. تحمَّل أنت وأخوك؛ فأنا تعبت.. تحمل عشرَ سنين لك وعشرًا لأخيك واتركوني أرعى مصالحي...

- أيُّ عبءٍ ما قُمتِ به.. كنت أذهب بأمي إلي المشفى إذا مرضت.. وإذا احتاجوا شيئًا أنا من يفعلُ كلَّ شيءٍ...

اقتطعت كلامي وقالت:

- أنت لم تدخل بيت أبيك لأكثرَ من عامين.. أنت تكذب على نفسِك أم عليَّ..؟ وأنا من تراعيهم وتُحضر طلباتهم.. لقد سئمتُ وتعبتُ.. لم تراعوا أنني امرأةٌ.؟ لدي عملي وبيتي وأولادي.. أيُّ رجالٍ أنتم..

لأرد مُستنكرًا:

لقد طُردت من البيت ولم يكلمني أحدٌ منكم كأنني كنت عِلَّةً تخشون منها العدوى.. إني ابتعدت عنكم لأرحمَكم من فقري وعلَّتي ولكن يجب أن تعلمي: هي من تحملتك وقامت بتربيةِ أولادِك هي المسؤولُ الأوَّلُ عن نجاحك..

فأغلقت في وجهي الخطَّ عندما وجهتها فاتصلتُ عليها مرةً أخرى فلم تردَّ.. واتصلتُ بـِ(محمد) أخي وحكيت له عن (حنان) وما فعلتْ فقال لي:

- أحضرْ لها من ترعاها وخذ من (حنان) فيزا البنك وأنا سأتحمَّل مصاريفَ من يرعاها واترك فيزا البنك مع أبي

فشكرتُه فقال لي:

- إنها أمي يا (يوسف)

لقد أوصت أُمي جارةً لها بإرسالِ سيدةٍ ترعى البيتَ ومن به..

اتصلت بـ(حنان) من هاتفِ أبي وطلبت منها فيزا (محمد) أن تعطيَها لأبي لأجدَ منها السبابَ واللعانَ ولتقولَ لي:

- هو يأخذها كما أعطاها لي

فاتصلت بأخي وقصصت عليه ما حدث.. فاتصل أخي بها لتعطيَ الفيزا

لأبي.. وما كان منها إلا أن أتت لتطيحَ بالفيزا في وجهِ أُمي لتقولَ لها:

- تتدللين ليصرفَ كلَّ ماله عليك.. أنتِ معكِ تدللي بمالك.. لكنك تريدينه فاشلًا مثلَ (يوسف) فبكت أمي وقالت لها:

- لا أحتاج لشيءٍ.. أقسم بالله يا ابنتي و(يوسف) ليس بفاشلٍ؛ فلديه بيتُه وأسرتُه وعملُه

فضحكت مستهزئةً تَزَينه اليومَ ليس بفاشلٍ لأنكِ تحتاجين إليه.. وكنت تقولين من ذي قبل: ربَّيتُ الطبيبةَ والمهندسَ ولم تذكري اسمَه حتى كنتِ تقولين: الفراش وتضحكين.. أتنسين كلامَك عندما قلتِ إنه الفاشل.. العالةُ.. يأتي كل يوم ليأخذَ مالا..أنسيتِ العالة.. فضحكت ضحكةً ساخرةً وأبي يخرج من صمتِه منفعلًا :

- اسمعي..كفانا فُرقةً.. يوسف سيكمل دراستَه، وسيصبح أحسن منكِ.. أنا أدعو له وسترين يا (حنان) من دعوا لكِ يدعون لهـ أن يوفِّقَه ربُّ العبادِ ويرفع شأنه ويسامحنا على ظلمه..

فوجدت نفسي أصفعُها على وجهِها ولم أفعل فعلتي هذه من قبلُ وقلتُ لها:

- أفيقي.. لماذا أصبحتِ هكذا..؟

فلم تسكت.. أإهانت رجولتي بأبشع الألفاظ.. فأخذت الفيزا و ذهبت إلي بابِ البيت فقالت وهي تشدني من يدي بعنف إلي أن دست

أظافرها بجلدي لتقول لي:

- تأخذها لتسرقَ ماله لتعطيه لزوجتك الحيَّةِ

فقلت لها:

- لن أسمحَ لك أن تهيني أمَّ صغاري يا بنتَ أبي وأمي، واحترامًا لهم لن أردَّ عليكِ لكنني أشك بك فقالت:

- أنا أشتريك بمالي يا مُعدمُ.. يا عالة.

- أنا فقيرٌ إلي اللهِ وليس البشرِ.. هل تعلمين أني في يومٍ سوف أرى فيك عبرة الجحود والتكبر والأنا

ووجدت أمي تبكي وتصرخ:

- اصمت يا (يوسف) أرجوك يا ولدي؛ فأخذتُ نفسي ألملمُها؛ فأنا في ثوبٍ جديدٍ.. ثوبِ الجراءةِ بعد الجبنِ، لم أكن أتوقع أن أقفَ أمامها..!

واتصلت بِـ(محمد) وقصصتُ عليه ما حدث فقال لي أخي:

- نعم يا ابنَ أبي وأمي.. استخرج كشف حساب

ففعلت وذهبت إلي أقرب مكينةٍ.. لا تتعجب؛ فأنا أقبض راتبي الشهريَّ من المكينةِ فـلذا أستطيع التعامل معها، و يا ليتني ما فعلت يا صديقي؛ فقد سحَبَتْ مالًا من أخي لتكملَ ثمنَ شقتِها وخشيتُ

أن أقول له حتى لا يقطعَ صلةَ الرحمِ، فذهبتُ لأمي وأبي وقلت لهم ما حدث فقال أبي:

- لا تتكلم مع أخيك؛ فسوف نسوّي المسألةَ سرًّا يا ولدي

فقلت له:

- كشف الحساب يا أبي..!

فلم يردَّ فأعطيتُ أبي الفيزا وقلت لأبي:

- لاتأمن أحدًا على مالِ أخي حتى لو كنت أنا..!

فوجدتُ أُمي تبكي وتقول:

- ليس هذا فقط لقد جعلتني اقطع بيدي عقد شقه اخيك بالساحل انت تعلم انني اشتريتها بماله لأنه كان مسافرا وكتبت له عقد عندما جاء بإجازته فلم اندهش هذه المرة لما قالته أمي لكنني كلمتها متسائلا

- لما ياأمي ؟ لماذا الظلم حبيبتي ؟

- اعطيني الهاتف يا يوسف

وبالفعل اخذت الهاتف وتكلمت مع حنان وقالت لها

- إن لم تُرجعي ما أخذتيه من أخيكِ فسوف اتَّصل بأهل زوجك

وبعملك لأفضح أمرك؛ فخشيت أختي من كلام أمي وبالفعل في اليوم التالي أضافت المال بحساب أخي.. استمرَّ أخي في الاتصالِ بي كثيرًا، فما كان أمامي إلا الردَّ على الاتصال بدون تردد فقال:

- ماذا وجدت..؟

- لا أعرف ماذا أقول..؟ لقد أخذت مالًا لكنها أرجعته، فكانت تحتاج مالًا لتكمل شقتها وأنت تعلم أنّ الشقة بحيٍّ راقٍ وتحتاج لتكمل شقتها

- ولمَ لم تقل لي أختك يا ابن أبي وأمي.. فقد كان كلُّ ما تطلبه مجابا..

فقال:

- أعطني أُمك يا (يوسف) فـتلجلجت أمي كالطفل الصغيرِ بكلامها حتى قالت ما حدث

فطلب منها أن تفتح مكبِّر صوتِ الهاتفِ حتى أعلم لِمَ كان بعيدًا عني ولم يكلمني حت أسمع ما يقال..؟

- ألم يكن (يوسف) هو المستغل لفقره، قلتِ يا أمي: لا تعطه مالًا إذا احتاج، حتي لا يعتاد، و(حنان) كانت تقول: إنه خبيثٌ وزوجته حيَّةٌ وإنهم يدَّعون الفقر لأخذِ المال هو من

رفضتم أن أُعطيه شقتي لينتقل فيها مؤقتًا لحين انصلاحِ حاله، وقلتم أخو زوجته محامٍ وسوف يخرجك من شقتك والآن (يوسف) أصبح البريء و(حنان) الشيطان يا لا وقاحةِ البشر..!

فأخذتُ الهاتف من أمي وقلت له:

- لا يا أخي.. أختك ليست الشيطان ولكنَّ الغرورَ تملَّكها فإنها لحمُنا ويجب أن نردعَها والعوز يا أخي فإنها ردت مالك..

فقال لي:

- اصمت يا (يوسف) وكفاك طيبةً وإلا اعتبرتها خباثة

- أنا يا أخي خبيثٌ.. يعلم الله أني أخاف الفرقةَ بعد لم شملنا.. لينتهي الحديثَ والبيت أصبح كالهشيم، ولا أعلم ماذا أفعل غير أنني ذهبت إلي إحدى المكتبات لأشتري نسخةَ عقدٍ وأُكمل بياناته حتي أنقل ملكية الشقة لأخي مرةً أخرى، وبالفعل مضت أمي وسألتها للمرة الثانية:

- لما يا أمي فعلتِ ذلك..؟

ردت كطفلة:

- أختك يا ولدي قالت غدًا سيتزوج ويحرمنا من جنةِ الصيف

وتجيئ زوجتُه تتحكم بنا.. متى نذهب لنروِّحَ عن أنفسِنا..؟
وأنا يا ولدي صدقتها؛ فهي صعبةٌ.. إنها ليست ابنتي التي حملت معها الرقة والوداعة فقلت لها:

- تتذكرين (محمد) كم عددُ مرات خطبته يا أمي

فقالت لي متأملة:

- كثيرًا

فقلت لها:

- لما وقفت يا أمي في كلِّ خِطبة..؟

- سامحها الله اختك فكانت تريد فتاةً معدومةَ الشخصية؛ فكانت دائمًا تذكِّرني يوميًا بشخصيةِ زوجتك وأنها أخذتك منَّا..!

- (مروة) لأجدَ نفسي أشيرُ بيدي إلى أبي لأقول لها:

- ومن هذا أبي لم يخذلك يوما.. ولم يُهِنك.. كيف لي أن أُهين امرأةً تحافظ على اسمي..! لقد رأتني كلُّ النساء ناقصًا إلا هيح فقد رأتني كاملًا أحبتني رغم عجزي.. أنا أعطيها القليل فبارك اللهُ ما بيديها.. وبأيمانها تملأُ البيت بالسعادةِ والخير

- أتعلم يا ولدي: أنا ربَّيتُ وأحمد اللهَ أنني صنعت رجلا..

فنزلت علي يديها اقبلها .

أتعلم ياصديقي: هي ابنتي التي لم أُنجبها..!هي قوتي التي لمستها.. هي حبيبتي التي لم أعشقها.. هي بسمتي التي ارتويت بها.. هي ألمي وطفولتي البائسة.. شفاكِ اللهُ يا أمي ورَحِمَك ممَّا أنتِ فيه .

ودار الحديثُ بيننا عمَّا حدث فـي الأيام الماضيةِ وتوجعت كثيرًا.. انتهى اليوم ولم أنم وأنا أُفكر كم كنت قليلًا أمام أهلي فاتصلت على زوجتي لأطمئنَّ على حالِها، فقالت لي:

- أمي عندي؛ ففرحتُ بذلك فأعطتني إياها لألقي سلامي عليها، وطلبت منها أن تنتظرني لحين عودتي من العمل غدًا لكنها تعللت بأخي (وفاء) لأنه يأتي للغداءِ كلَّ يومٍ عندها لقربِ مكتبِه من بيتها..! استأذنتها ولم تفتح معي حوارَ العزاءِ متمنيةً لأمي الشفاء والعافية..

صباح اليوم الخامس:

لم يغمض لي جفنٌ طوال الليلِ.. فاتصلت بالعمل وقدمت طلبَ إجازةٍ عارضةٍ .

وتوضَّأت وصليت ووجدت أبي يجلس بشرفةِ المنزل يُدخن سيجارتَه اللعينة.. أنا أكره رائحتَها فـإنها الموتُ البطيئ..

ذهبت لأصنعَ كوبين من الشاي وأخذت بعضَ الكعك المحلَّى بالسكَّرِ، وتبادلنا أطراف الحديثِ وكنا نضحك تارةً ونتأزَّم تارةً أخرى، ثمَّ استأذنَ

أبي للراحةِ قليلا.. للأسف رائحةُ البيتِ عفنةٌ أخذتُ السجادَ والملابس المتراكمةَ ولم أخجل من غسلِ ملابسِهم ونشرِها في الهواء بشرفةِ المنزلِ، ونظفت البيت جيدًا وغسلت الأطباقَ بماءٍ ساخنٍ والأكواب.. أتعلم يا صديقي: أبي لا يعلم بأمور النظافةِ شيء..! فـاستيقظ أبي وأمي علي رائحةِ عطرةٍ وإفطارٍ شهيٍّ فابتسم أبي وأمي بعد زمنٍ من الحزن، فسمعنا طرقَ البابِ لأفتحَ لجارتنا الطيبةِ مصطحبةً سيدةً في العقدِ الرابعِ من عمرِها ومعها فتاةٌ صغيرةٌ لم تبلغ العاشرةَ من عمرِها؛ فـتكلمت أمي معها وقالت لها:

- حركتي بطيئةٌ ولا أعلم السببَ.. ماذا تُريدين يا ابنتي؟

- ألفا جنيهٍ

- أتعلمين أنني أُريدك مقيمةً؟

- نعم؛ فأنا ليس لديَّ مكانٌ

- اسمحي لي بأوراقك

- بالطبع.. فأنا أحضرتها معي.

فوافقت أمي ووضعت يدي في جيبي ورضَّيْتُ الفتاةَ الصغيرةَ بمبلغٍ بسيطٍ وعملت بنصيحةِ أمي عن الصدقة.. وتذكرت ابنتي خديجةَ وزوجتي إذا وضعهم القدرُ في هذه المحنةِ فبكت عيني لأنني أعلم جيدًا أنَّ أمي صعبةَ المعاملةِ وكثيرةَ الأوامرِ، وأنا أعلم معنى الفقر؛ فهذه السيدةُ قبلت العملَ

لعوزِها للمال والسكن .

فقالت لها أمي:

- حجرتك بجوارِ حجرتي.. اذهبا لتغتسلا وتتناولا لإفطاركما.

كان اللهُ في عونك يا أمَّ (رحمة) لا تتعجب فأنا أعلم طبع أمي.. صعبةُ المِراسِ والمعاشرةِ، لكن لا أنكر أنَّ التعبَ يأكل أوصالها..!

أتحب أنْ نثرثر قليلا.. لا تفقد رغبتك في معرفةِ باقي طفولتي الكئيبة.. حت، لا أنزعج منك.. أنا أعلم أنك مللتَ، ولكن من سأخرج له ما بجعبتي..؟ أتذكر أمي وهي تضربني بالعصا لأنني وجدت جنيها لم أعطه لها..؟! وكنت طفلًا محرومًا فكانت الحياةُ صعبةً؛ فكان مصروفي لا يتعدَّى العشرةَ قروشٍ وأتذكر زجاجةَ (الكولا) حينَ كانت بخمسةٍ وعشرين قرشًا، وكانت العشرُ قروشٍ لا تشتري لنا إلا كيسًا من اللب أو الحلوى، وكنت أتمنى أن أشرب (الكولا) أو أشتري البطاطسَ المصنَّعةَ كبقيةِ الأطفال، ولكن الفقرَ صعبٌ يا صديقي.. لندخلَ بالمرارِ فأنا مواليد عام١٩٨٠ فكان عمري وقتها يُداني الثمانِ سنواتٍ ووجدت امرأةً غريبةً عند أمي فكان أبي من عادته أن يُشغل القرآنَ دائمًا في البيتِ، ولكن الآن الشاشةُ تحكمنا وتفرضُ علينا اللهوَ طوال اليوم ياصديقي.. تنسينا ذكرَ الله فأنسانا اللهُ أنفسنا..! المهمُّ: وجدنا السيدةَ تصرخ وتنطق بكلماتٍ غير مفهومةٍ فوقفت أمامي ونظرتْ إليَّ وأنا كنت خائفًا فوجدتها تتكلم بصوتِ رجلٍ، وأمي نهرتني لوجودي معهم وقالت لي: اذهب لحجرتك وقالت

لأبي: اقفل القرآنَ يا (أبا يوسف) وبالفعل هدأت السيدةُ.. فقالت أمي لها:

- أرجوك لا تأتي إلي بيتي مرةً أخري..

فقالت المرأةُ لأمي:

- اعذريني فأنا مريضةٌ روحيًا، فقالت أمي لها:

- شفاك اللهُ.. أرجو منك أن لّا تأتي

وبالفعلِ انتهى الموقف بخروج السيدةِ من المنزل بدونِ عودةٍ.. أنت تسألني لمَ ذكرتُ حكايةَ السيدةِ..؟ سأقول لك ياصديقي:

الجنيه فُقِدَ من السيدةِ أثناءَ حالتِها المرضية، وأنا لاحظت وقوعَ الجُنيهِ من السيدةِ؛ فأخذته واشتريت به حلوى والكولا والبطاطس المصنَّعه.. نعم أنا لصٌّ صغيرٌ وكانت تربيني كما تقول أنت ياصديقي الآن.. وأنا لم أنكر أنني أحبُّها لكنني كنت أتمنَّي أن تعلمني معنى الأمانة بدون ضرب يُدمي جسمي ويُؤلم عظمي..! اللهُ وضع حدودًا للتربية.. أنا ضُربتُ ياصديقي إلى أن دَمِيَ جسدي وجلست بالبيت شهرًا كاملًا لا أنزل من البيت حتى لا يرى الناسُ وجهي تعتقد بأنَّ فتاةً بعمر (رحمة) لن تُخطئَ..؟ العوزُ يجعل الأطفالَ يخطئون بغيابِ الدين والأخلاق، هل تعتقد أنني استمريت بحبي لها..؟ لا.. كرهتها في ذلك الوقتِ أصبح لساني ثقيلًا بالكلام.. أخاف من كلِّ حركةٍ أفعلها.. فـهل تعلم ماذا كان يطلقُ علي الأطفالُ

في المدرسة..؟ «تهته الأعرج وصل..!» هل تتخيل كمَّ التعبِ بداخلي ياصديقي..؟ انتظر لا تبتعد سأجعلك تكتب النقيضَ في يوم ما.. ابنتي (خديجة) كانت تلعب مع ابنةِ خالتِها وأخذت لعبةً أعجبتها بدون علمِ خالتِها وخبأتها بملابسها..

أعتقد بأنَّ الفضولَ يأخذك الآن ذهبت لأدينَ نفسي بمبلغٍ لأحدِ أصدقائي وأحضرت حلوى ولُعَبًا لأطفالي (خديجة، وعمر) لأجدَ زوجتي تأخذ اللُّعبَ وتقول لِـ(خديجةَ) أن تُكلمني قبل اللعب، وبالفعل أخذتُ (خديجة) وقلت لها:

- الآن عندك لعبٌ يا (خديجة) فإذا أخذتِ شيئًا ليس ملكًا لكِ فاعلمي أنَّ اللهَ سوف يحرمك من حبي؛ فبكت طفلتي وقالت:

- لن أفعل هذا أبدًا

وبالفعلِ: كانت ابنتي إذا وجدت شيئًا بعد ذلك أعطته لأُمِّها، ولا تأخذ شيئًا من أحدٍ وإذا احتاجت فإنها تطلب مني وأنا أُحضر لها ما تريد مع صرفِ مرتبي كلِّ أول الشهرِ.. لقد خصصت جزءًا بسيطًا يا صديقي لإنعاشِ روحِ أطفالي.. و(رحمة) تذكرني بي.. لا لُعبَ ولا طفولةَ ولا حلوى..! فأخشى عليها من معاملةِ أمي.. ألم تشتهِ هذه الطفلةُ الحلوى أو البطاطسَ المصنعة أو تتمني دُمَىً لتلعبَ بها أو فستانًا جديدًا ترتديه..؟!

اسمع يا صديقي: لنملأَ الأوراقَ قليلًا؛ فيومي يشوبُه الملل وأنا جالسٌ

وحيداً.

وفي يومٍ مرضتُ مرضًا شديدًا، وكنت لا أُجاوِزُ العامين وكانت أُختي تكبرُني وأمي بالطبع تعمل؛ فلم تستطع متابعتي، فأخذني جدَّي أبا أمي عنده حتي يرعاني.. فـذهب بي إلي طبيبٍ مشهورٍ، ولقد شفيت ولكني أصبتُ مع ذلك بشللٍ يسيرٍ في إحدى ساقَيَّ، ولم يكفَّ جدي عن علاجي حتي أصبحت أَعرجُ بقدرٍ بسيطٍ.. كنت مدلَّلًا، فإنا طفلا أبيضُ الوجهه وعينيَّ زرقاوانِ وشعري بُنِّيٌّ؛ فأنا أُشبه جدي كثيرًا، وحين كنت أسيرُ معه كان الناسُ يعتقدون أنني ابنه؛ فهو لم يُنجب ولدًا؛ فقد كان لديه خمسةٌ من البناتِ فاعتبرني ابنَه، ولم تحسَّ بي أمي إلا بحين بلغتُ السابعةَ وكنت أعتقد بأنَّها أُختي لا أكثر .

وعندما توفِّيَ جدي توفِّيت أيامي معه..! أتعلم أنَّ سببَ بُعدِ أمي عني أنها تركتني من أحضانها لفترةٍ كنت أحتاج إليها فجفَّ قلبي قبل قلبها وقلبِ اختي وأبي.. أتعلم: لفقري أرادت أمي أنْ تأخذ (خديجة) لتربّيها ولكنني رفضت وقلت لها أولادي يدٌ واحدةٌ ولن يفترقوا أبدًا..! المهمُّ ياصديقي: ذهبت إلي بيتِ أبي وكان كلُّ شيءٍ بالبيتِ صارمًا كئيبًا إلى حدٍّ كبيرٍ.. أمي تعمل وتتركني مع أختي بالمنزل، وفي يومٍ كنت ألعبُ فقالت لي ما رأيك يا (يوسف) في أنْ ألعب معك، ففرحتُ لأنَّ أختي سوف تُؤنس وحدتي، وما عليها إلا أن أحضرت حبلًا وربطت قدمي ويدي حوالي أربعِ ساعاتٍ إلى أن جاءت أمي وتفاجأت فقالت:

- لما فعلتِ هذا يا (حنان)

وأمي تراني نائمًا من شدَّةِ بكائي؛ فـقد كنتُ طفلًا؛ فقالت أختي كاذبةً:

- إنه أمسك بالكبريتِ يا يا أمي فخشيتُ أن يُحرقَ نفسه أو يُشعلَ البيتَ، فقلت لها لا.. إنها كاذبةٌ يا أمي.. وكان ردُّ أمي أنْ صفعتني على وجهي وهي تقولُ:

- أنت الكاذبُ.. (حنان) لا تكذب لتأنِّبَني على تربيةِ جدي لي بالكلامِ لتقول:

- رحمك الله يا أبي دللته كثيرًا

ولم تكتفِ بهذه الصفعةِ، بل أخذت حزامَ أبي وانهالت عليَّ به ضربًا حتي فتحت رأسي بحديدةِ الحزامِ، فاستنجدت بإحدى جارتِنا فقالت: إنني خبطتُ رأسي ببابِ الحجرةِ، وبالفعلِ نزلتُ المشفى وقام الطبيبُ بخياطةِ رأسي..! كنت أتألَّم كثيرًا يا صديقي.. جاء أبي ولم يتكلم أو حتى يحَاول تطييبَ خاطري.. بكيتُ إلى أنِ اعتصرَ الألمُ قلبي..!

أنا أحكي لك النقيض فَ(رحمة) ذكرتني بنفسي وأنا طفلٌ.. أتعلم ياصديقي: إني متعبٌ الآن.. سوف أُرح يدي وعقلي من آلامي قليلًا وغدًا سوف أقصُّ عليك باقي آلامي..

صباح اليوم السادس:

استيقظت علي تليفون صديقي يخبرني بقدوم الشيخ إلي بيت أبي مساءً وتمنَّى لأمي العافية وقفلت معه الخطَّ ونبضاتُ قلبي تتصارع بانتظارِ المساءَ.. اليوم يمرُّ ببطءٍ عميقٍ يا صديقي ...أنا اندمجت معك فأصبحنا شريانًا واحدًا لا يفرقنا إلا الموتُ لنكملَ ياصديقي ما تركناه من ثرثرة أمس..

جدي كان يحبُّ أن يقتنص الكتبَ ولقد ورثتَ مكتبته بناءً على رغبتِه بمكتبه واريكته العتيقة وخصصت لهم حجرةً لا تدخلها زوجتي حتي بعدما نقلت من شقتي القديمة.. بعد انتهاء عقد الإيجار وأعطانا أخاها شقته بعدما فتح الله عليه واشترى شقةً بمكانٍ راقٍ.. أنا شغوفٌ ياصديقي بالقراءةِ مثل جدي.. أجد ياصديقي الفضولَ يُلحُّ عليك.. أتعلم كيف أخذت مكتب جدي بأثاثه.. سأقول لك ياصديقي.. شقةُ جدي لم يدخلها أحد بعد وفاته وحدثت ضائقةٌ ماليةٌ لإحدى خالاتي وعرضتْ بيعَ الشقةِ على باقي إخوتها حتى ينتفعَ الجميعُ.. و بيعت الشقةُ وخالتي كانت الأصغر سنًّا فكانت تُحبُّني وتعلم وصيةَ جدي فاتصلت بي لأخذِ ما ورثته من جدي مكتبته بما تحتويه من كتبٍ وأثاثٍ وأمي قاطعت خالتي ولم تكلّمها بعد ذلك.. لأنها أعطتني مكتبَ جدي..

فوجدت بها كتبًا مليئةً بكنوزٍ كبيرةٍ فهو كان هاويًا القراءةَ حتي الكتبَ العامةَ والمعقدةَ يمتلكها ومنها كتبٌ عن السحر والجانِّ، وكيف خلقوا

وكتبٌ لتفسيرِ القرآن.. كان يقرأ فقط.. يطلع فقط.. وأعتقد أنه كان يشتري ولا يقرأ كلَّ الكتب فكانت لديه مكتبةٌ كبيرةٌ ومكتبٌ قديم الطراز اشتراه من مزادٍ لأحدِ الأمراءِ..

وفي يومٍ أحضر جدي كتابًا قديمًا من مكتبةٍ تبيع الكتب القديمة وأخذ الكتاب ليقرأه وخرج من حجرةِ مكتبته ووجدنا المكتب يشتعل فأخمد جدي الحريقَ ولكنَّ الأغربَ هو أنَّ الكتاب لم يحدث له شيءٌ أو حتى المكتب، وانتهى كلُّ شيءٍ بعدما فتح المذياعَ على القرآن بالبيت، لكن جدي بعدها بشهر توفي وكان يرى أشياءَ غريبةً، فكنت صغيرًا لم أتذكَّر كلَّ شيءٍ ولكنني أفتقده بشدةٍ.. أخذت منه حبةً للقراءةِ والكتابةِ، أتعلم ياصديقي: إذا كنتَ رجلًا لكنتُ جلستُ معك وناقشتك ياصديقي كثيرًا.

(الجلسة لأاولى)

الهاتف يرنُّ الأن ياصديقي

- السلام عليكم
- السلام عليكم
- لا عليك يا (يوسف)
- أنا في الطريق

- أنتظرك

قفل الخطُّ يا صديقي والوقتُ أمامنا ولن أتركك، وسوف أقصُّ عليك ماذا حدث..؟ فأنا أعلم أنك الآن شغوفٌ لتعرفَ مثلي ما سبب كلِّ هذه الفوضى ولكن إياك ياصديقي أن تجعل حبرَك ينفد حتى لا أجعل من دمي حبرًا لك لتكملَ صفحاتي الباقيةَ؛ فـأنت تعلم كم أنت غالٍ على قلبي، فأنت قلمُ أبي الذي لم ينجبني وأنجب من انجبتني..! فاسرد بتأنٍّ ولا تتباطأ..

دخل الآن رجلٌ طويلُ القامةِ بشرتُه سمراءُ يرتدي ملابسَ عصريةً لديه لحيةٌ مبتسمًا وبوجهه نورٌ يمسك بيده مسبحةً من الزمرد الخالصِ.. أنت تعرف من هو..! الشيخُ (عبيد) جلس ومعه صديقي في حجرةِ الضيوف، فأمِّي لا تُجلِسُ بها أحدًا ما لم يكن ذا أهميَّةٍ، وجلست معهم ودخل ابي إلى الحجرةِ يتكئُ على عصاه الخشبيةِ وأخذ الرجلُ يتفحَّصُ الحجرة بنظره وهو صامت، ونظر لصورةٍ تجمع العائلةَ وقال:

- هذه والدتك.. يبدو أنها قويةٌ..! قُصَّ عليَّ يا ولدي ما حدث لولدتك

فصمتُّ.. ولا أعلم لماذا ترتعش يدي لأجدَ (رحمة) ابنةَ السيدةِ (فاطمة) راعيةَ أمي تُدخل العصائرَ لترحب بالضيوف؛ فشكر الرجلُ (رحمة) وسألها عن اسمها وعن دراستها فردت الطفلةُ باستيحاءٍ على الشيخ.. فاستخرج من جيبه بعضَ النقودِ لِـ(رحمة) وذهبتِ الفتاةُ وهذه المرةُ وجَّه الكلامَ

لوالدي وقال:

- أنا أُدعى الشيخ (عبيد)

فرحب أبي به وقال طلباتِك يا شيخُ (عبيد)

- قال الدعاء لي ولذريتي أيها الأخ الكريمُ فأنا لا أتقاضى نقودًا، ما أفعلُه لوجهِ الله

– تعالى

.فنظر لي وأكمل كلامه مع والدي وقال

- قُصَّ عليَّ ما حدث لأختنا الكريمة

قَصَّ عليه أبي ما قصه عليَّ وأعلمه بأنَّ هناك معالجةً جاءت إلينا من قبلُ، وزوجتي هي من اعلمتنى بمجيئها و أدخلتها وأفاقت زوجتي بعدها ولكن منذ قليلٍ رجعت لفقدِ وعيِها مرةً أُخرى، فقال الشيخُ:

- يا أخي.. ما اسمك

- اسمي (حسن)

- يا سيد (حسن) أيمكن أن تنادي على مراعيتِها، فقال لي أبي:

- أتسمع يا (يوسف) طلب الشيخ

فقلت بتوترٍ:

- نعم يا أبي

- اذهب سريعًا يا ولدي

ذهبت إلي السيدة (فاطمة) وأحضرتها إلى الشيخ (عبيد) ليتحدَّثَ معها.. فسألها الشيخُ:

- هل ترَين شيئًا غريبًا هنا؟

فقالت:

- نعم.. أحيانًا أضع أشياءَ ولا أجدها وابنتي رأت أيضًا أشياءَ..!

- وما يحملك على البقاء..؟

- ليس لديَّ سكنٌ، والسيد (حسن) –كرَّمه الله – يُعطينا نقودًا وحجرةً.. أنا وابنتي نقطن بها

- أين ابنتك..؟

فذهبت السيدة لاستدعاء (رحمة) وسألها الشيخُ (عبيد):

- ماذا رأيتِ يا ابنتي الصغيرة..؟

- كنت أذاكر مساءً ووجدت السيدة (أمينة) بملابسَ شبهَ متهالكةٍ تقف أمامي وتنظر لي واستيقظت أمي علي صراخي وأنا خائفةٌ، فهدَّأتْ من روعي وأعطتني كوبًا من الماء وذهبت لحجرةِ السيدةِ

(أمينة) لتجدَها نائمةً .

فقالت (فاطمة):

- نعم يا سيدي هذا ما حدث..

لتتكلَّمَ (فاطمةُ) بخوفٍ:

- لكنني قلت لابنتي بأنه وهم

فقال الشيخ:

- ومَن أيضًا رأى السيدةَ (أمينة)

فقلت له:

– أنا

– أكيد

أنا تعجبت من إجابته.. صمتَ الشيخ قليلًا.. وطلب من السيدةِ (فاطمة) أن تستر أمي لأنه يريد أن يراها فذهبت السيدةُ لتجد أمي واقفةً وعيناها جاحظتان وقدماها مرتفعةٌ عن الأرضِ لتصرخ (فاطمة) ونذهب جميعًا إلي أمي، ونظر الشيخُ (عبيد) إليها وهو مبتسمٌ لأجدَ صوتَ أمي كصوتِ عواءِ الذئاب..!

فقال الشيخ (عبيد):

- ماذا تريد من السيدةِ..؟

فردَّ ذلك الذي في جسدِها:

- الهلاكَ والعذاب..!

فنظر الشيخُ لي ثمَّ وجَّه نظرةً لأمي وقال:

- أأنتَ وحدك..؟

فضحكت أمي ضحكةَ الشيطانِ وقالت:

- لا.. نحن قبيلةٌ.. نستمتع بما يأمرنا به سيدُنا

فقال الشيخ (عبيد): من هو سيدُكم..؟

لأجدَ أمي ترتفع فُجاءةً وتسقط علي الأرضِ مغشيًّاً عليها، فطلب الشيخُ من أمِّ (رحمة) ماءً وقرأ عليه آياتٍ من القرآنِ، وأخذ يرشُّ الماءَ على أمي وكان دخانًا يخرج من جسدِها وتتشنَّجُ وتلتوي ليظهرَ صوتُ امرأةٍ تقول بضحكةٍ مليئةٍ بالسُّخرية:

- لن تستطعَ أن تفعلَ شيئًا ولكنَّ الشيخَ (عبيد): مازال يقرأ القرآن حتى هدأت أُمي، فحملتُها إلى فراشِها وأخذ الشيخُ كرسيًّاً بجوار أمي ليقول لها:

- نحن نحتاج إلي علاج يا أختي الكريمة، ولن ينتهي العارضُ سريعًا.. مستعدةٌ لتحمُّلِ المشاقِّ..؟

فأجابت أمي برأسها بالموافقة، فطلب مني الشيخُ المغادرةَ أنا والجميع وتركَها ومعه أبي فقط أثناء العلاجِ، ولكنني رفضت وتعللت بتعب والدي فنظر لي الشيخُ وهو يبتسم وقال:

- لابأس..

قال الشيخ لأمي:

- سوف تغمضي عينك وأنا أقرأ ما تيسر من كتابِ اللهِ، وسوف تقولين لي ماذا ترين..! وبالفعل فعلت أمي ما قاله الشيخُ (عبيد) لتبدأَ أمي تعوي مثل الذئابِ، ولم تتكلم فأنهَى الشيخُ قراءته القرآنَ علَى الماءِ الذي طلبه لذلك..!

الشيخ (عبيد) يعالج بشكلٍ مختلفٍ عمَّا رأيته من قبلُ.. ذهبت مع الشيخ وصديقي تاركين أمي بصحةٍ أفضلَ لأجد الشيخَ يسألُني:

- من يكرهكُم يا (يوسف)..؟

فقلت له:

- لا أعلم

- أتعلم أنَّ الإنسانَ لن يُقدِّمَ أو يؤخِّرَ عمر أحدٍ..

فصمتُّ ونظر لِ(عماد) فاستأذن (عماد) تاركًا مكانًا فارغًا حتى يتسنَّى للشيخِ الانفرادَ بي للكلام معي .

- اسمح لي يا (يوسف) أنْ أزورك في بيتك، فرحبت به ولكنني سألته:

- هل هناك خطأٌ يا شيخُ..؟

فقال:

- اليومَ لا تُعتبرُ جلسةً للعلاجِ.. سوف نعلم في المقابلةِ القادمةِ..

استأذن الشيخُ لضيق الوقت وأخذ ميعادَه معي غدًا بعد صلاةِ الجمعةِ، فاتفقت معه للصلاة بالمسجدِ والذهابِ معه لكنَّه قال لي:

- صلِّ معي في مسجدِ النور، لأني أخطب فيه وأَؤمُّ الناس في الصلاة..

صباح ذلك اليوم استيقظت وتناولت الإفطار مع زوجتي وصغاري وتوضأت لأذهبَ إلى المسجدِ.. وكان المسجد في حيٍّ راقٍ.. صليت وانتهى الشيخ (عبيد) من الخطبة ونزل من على المنبرِ وتناقشنا قليلًا مع بعضِ الشبابِ بأمورِ الدين.. فالشيخُ (عبيد) لا يهتمُّ بالسياسة، فإذا بادر شابٌّ بالحديث عنها يقول يا ولدي: أنت لستَ في مكانِ أحدٍ.. كان اللهُ في عونِ رجالِ الدولةِ.. ويقطع حديثه..! هو رجلُ دينٍ وسطيٌّ.. رأيت فتاةً لا ترتدي لباسًا شرعيًا أثناء خروجنا من المسجدِ؛ أوقفته وسألته وأجاب عليها ودعا لها بالتوفيق والنجاح، وعندما سألته لمَ لمْ لمْ تنصحْها بارتداءِ اللباسِ الشرعيِّ قال لي:

- اترك الملك للمالك.ز إنَّ الله أمر ونهى، وهي ليست طفلةً..! إنها شابَّةٌ تتمتع بالذكاء والعلم فصمتُّ وذهبت بالشيخ إلى بيتي، ورحَّبتْ

به زوجتي وطلب مني الجلوس بمكتبي وقلت له:

- كيف تعلم بأنَّ لي مكتبًا

فقال:

- بابُ المكتب مفتوحٌ

فصعقت.. فأنا دائمًا أغلق بابَ مكتبي بالمفتاح؛ فكيف فُتِحَ.. فسألتُ زوجتي: هل فتحتِ البابَ..؟ فنفت وأنا أُصدِّق زوجتي، فتعجب الشيخ وقال:

- سبحان الله..! فاستيقظ ابني الصغيرُ (عمر) والدموعُ تملأُ عينيه قائلاً لي:

- أين الحلوى التي أعطتني إياها جدتي (أمينة) ودخل حجرةَ المكتب وأخذ كيسًا مليئًا بالحلوى.. يا الله.. إنها أمي.. كيف يحدث هذا..؟

فدخل الشيخ (عبيد) حجرةَ المكتب بدون استئذانٍ ونظر إلى الحيطان والكتب والمكتب والأريكة فقال لي:

- إنه أثاث أثريٌّ..!

- إنه لجدي أبو أمي

- جاءت والدتك إلى بيتك قبل الوعكةِ..؟

فقلت بسخريةٍ

- لم تزرني منذ زواجي إلا مراتٍ قليلةً.

فتبسم

- و هل قرأت كلَّ هذه الكتب..؟

فأومأت له برأسي: لا

- بها كتب عن السحر.. ألم تجد ما يُخلِّص أمك من عذابها..؟ لو كنت مكانك لفعلت

- إنها مكتبةُ جدي.. أحتفظ بها لأنه من رباني منذ صغري

- هل أمك تحبك..؟

- نعم.. أكيد.. كما أُحبها

- كيف تسمح لك باقتناءِ هذه الكتب..؟! اسمع يا ولدي قُصَّ عليَّ ما حدث حتي أُساعدك لأنَّ ما بأمك لا يتحمله بشر

فقصصت عليه ما رأيته من العزاء إلي المقبرةِ، وأثناءَ حديثنا وجدنا كلامًا يُنقش.. أنا أعذب يا ولدي فقال بهدوءٍ كأنَّ ما يحدث شيءٌ عاديٌّ

- أمك تستنجد بك يا (يوسف) يجب أن تساعدها وابحث عن طيات الماضي لنجدَ أرقامًا مجمَّعةً تُنقش على الحائطِ ودائرةً سوداءَ تُفتح..!

فقرأ الشيخُ القرآنَ حتى هدأت الأمور.. فسألتُه:

- لماذا يا شيخُ تفعل كلَّ هذا وأنت لا تتقاضى نقودًا..؟

- لوجهِ الله — تعالي – ألم تعمل خيرًا.. اسمع.. فهمت من (عماد) أنك لديك إخوةً، فما أسماؤهم..؟

قلت له:

- (محمد) مهندس وسافر للعمل بإحدى دول الخليج، وأختي (حنان) طبيبةٌ بإحدى المستشفيات الحكومية

- وأنت

- فراش بإحدى المصالح الحكومية

- أتحزن لأنَّ حالهم أفضل

- لا.. والله يا شيخُ، فتحَ اللهُ عليهم ويسَّرَ أمرهم، فهم تاجٌ موضوعٌ علَى رأسي وأنا أتشرَّفُ بعملي..

- وما حالهم

- أخي (محمد) شابٌّ وسيمٌ متدينٌ هادئُ الطباعِ متيسِّرٌ الحالِ، لكنَّ حظَّه سيءٌ يخطب كثيرًا ولا يُوفَّقُ..!

- أنت الأكبرُ، أليسَ كذلك..؟

- نعم.. بخمسِ سنواتٍ وأختي تكبرني بعامين

- كم عمرُه..؟

- ثلاثين.. ولم أره إلا ثلاثَ مراتٍ خلال السنواتِ الثمانيةِ؛ فهو ينزل قليلا

- وكيف كان يخطب بدون رؤيةِ العروس..؟!

- أمي كانت تخطب له من معارفِها، وكان يتكلم مع الفتاةِ هاتفيًا عبرَ برامجِ الصوتِ والصورةِ، وأحيانًا يتمُّ فسخُ الخطوبة بدون نزوله..

- يا الله..! وكيف يوافق أهل الفتاةِ وأخوك على هذا الوضع..؟

فصمتُّ قليلًا وقال:

- هل تمَّت خطبةٌ فعليةٌ

فقلت له وأنا حزينٌ:

- نعم ثلاثَ مراتٍ

- ولم يوفَّق

- نعم يا شيخُ (عبيد) لم يوفَّق..

- اسمع يا ولدي هناك لغزٌ لا أستطيع فهمه، ولكني أعلم أنَّ البوابةَ فُتحت بعدما أُغلقت بنزولِ القرآن، ولكن للأسفِ معظمُ بيوتنا الآن

تترك كتابَ الله وتتبع الشهواتِ وتلتجِئُ إلى الدجل والشعوذة.. رحمنا الله من هذا.. هذا بدايةُ النهاية..

- لا أستطيع أن أفهم يا شيخ (عبيد) أنا أصلي فروضَ الله وحافظٌ لكتابِ الله

- إذن: لمَ تحتفظ بكتبِ السحرِ؛ فهي تقلب حياتك.. أستأذنُ لي بأخذ كُتبِ السحرِ – هذه – من المكتبة..؟

- لا.. فهي غاليةٌ على قلبي.. إنها ملكُ جدي

- ولدي.. لا تتهاون بمثلِ هذه الكتب.. وافترض أنَّ اللهَ استردَّ منك وديعتَه ذاتَ يومٍ وفتح (عمر) ابنُك أحدَ – هذه – الكتبِ، أستصبح سعيدًا إذا أشرك بالله..؟!

- لا بالطبع.. أمهلني بعض الوقتِ لأُفكر

- لا تفكر كثيرًا وأتي لي بزوجتك ...

فتحت الباب لأجدَها تقف أمامَه فقلت لها:

- أهذا يصحُّ يا أمَّ (خديجة)..؟!

فقاطعنا الشيخُ وقال لها

- ادخلي يا أمَّ (خديجة)

وسألها الشيخ (عبيد)

- ابنتي الكريمة ألم تري شيئًا غريبًا في البيت..؟ قالت زوجتي (وفاء) وهي تنظر لي

- نعم يا شيخ.. كثيرًا.. في يومٍ كنت أجلس لصلاةِ القيامِ وزوجي يعلم بحسنِ صوتي وإجادتي لقراءةِ القرآن..! وجلست ساعةً من التجلي للقراءة والدعاء وعند انتهائي وجدت هواءً قويًّا يضربني من ظهري وأشياءَ تتحرك بالبيتِ.. كأنَّ هناك رجلًا غاضبًا لا يرتاح من قراءةِ القرآنِ، وكان عندي عصفوران من الكناري لأجدَهم يصيحون بفزعٍ ويتحركون بالقفص بشكلٍ غريبٍ.. وأستيقظت صباحًا لأجدَ رأساهما مفصولتينِ عن جسدهما، وفي يومٍ ذهبتُ لأهلِ زوجي من فترةٍ طويلةٍ فوجدت أبا زوجي يدخل حجرةً ينام بها أطفالي عندهم فسألته:

- يا عم (حسن) أتريد شيئًا..؟ فلم يردَّ لأتفاجأ ببابِ الشقةِ يُفتح بالمفتاحِ لأجدَ عم (حسن) فانتابتني حالةٌ من الذُّعرِ والصراخ لأجدَ عم (حسن) يهدِّئُ منروعي، لكنني كنت خائفةً منه فجاءت أمُّ زوجي لتهدِّأني، فدخلت الحجرة التي ينام بها أولادي ولم أنم إلي أن جاء الصباح وأخذت أولادي بدون أيِّ كلمة.. كانا يومين أسوءَ ما رأت عيني، فهناك أشياءُ تختفي وتظهرُ بمنزلي وأطفالي يشتكون دائما بوجود أطفال يأخذون الحلوى منهم، فسألني الشيخ (عبيد):

- أكنت تعلم..؟

- لا يا شيخ (عبيد) هذه أول مرة أسمع بها هذا الكلام.. وأنا لم أحس أو أرَ أيَّ شيءٍ إلا في الأيامِ الأخيرةِ؛ فقالت زوجتي:

- خشيت أن أقصَّ ما رأيت حتى لا تنعتَني أمُّ زوجي بالجنونِ، أو تقولَ أن شقةَ أخي مسكونةً.. لهذا لم أتكلم.. فقال لها الشيخُ (عبيد)

- رأيت شيئًا آخر غريبًا

فردَّت زوجتي سريعًا

- لا.. لكنَّ هذه الحجرةَ ينقبض قلبي عند دخولها، ودائمًا كنت أقول لزوجي أحرق هذه الكتب.. فقال الشيخ:

- يا الله..! شيءٌ غريبٌ يحدث معكم.. يجب أن تتصل بأختك و أخيك لتسألهم: هل رأوا شيئًا سيئًا..!

فاستأذن الشيخ (عبيد) وأعلمني بأنَّ الجلسةَ القادمةَ يومَ الإثنين المقبل متمنيًا حضورَ كلِّ أفرادِ الأسرةِ جميعًا ..

أتعلم يا صديقي: أنا جسدي يقشعرُّ إذا لمست أحد هذه الكتب.. أنا لا أقوى على قراءتِها.. فأنا أقرأ كلَّ شيءٍ مثل جدي.. لكن هذه الكتب أخاف منها.. لا أعلم لماذا..؟ لكن هناك شيءٌ ما بداخلي يسحبني كثيرًا

للاطلاعِ عليها ولكنّ قلبي يرتجف.. فأقرأُ جملةً ولم أفهم معناها، فأتركها جانبًا.. أتسأل يا صديقي: ماذا يعني بأنَّ البوابةَ فُتحت بعدما أُغلقت بنزولِ القرآن..؟! هل نحن يا صديقي في بدايةِ النهايةِ.. يشهد ربُّ العبادِ أنني العبدُ الضعيفُ قليلُ الحيلة أمام جميعِ مخلوقاته.. اللهم ارحمني يا الله واشفي روحَ أمي من بلائها وشقائها واهدِ من آذاها ليرجعَ لصوابه..

هيا.. ننسجم يا صديقي معًا وادعُ معي ربَّ العباد أن يرحمَ أمي من الهلاك فأنت يا صديقي خُلقت قبلي.. أنا أُحسُّ بك.. أنت خُلقت لتجري بالوريدِ لتستخرجَ أروعَ وأقبح ما فينا .

(ما قبل الجلسةِ الثانية)

وجدت صديقي (عصام) يتَّصلُ على هاتفي ليخبرني بأنه أعطي رقمَ الهاتف للشيخ (عبيد) فقلت له:

- نعم.. فلقد اتَّصل بي وقابلته، وشرفني في منزلي.. هل قال لك شيئاً..؟

- إنه لن يتكلم يا صديقي عن بيوتِ أحدٍ؛ فإنه تقيٌّ ولا تخشَ مني؛ فما رأيته عند والديك لن أقوله لأحدٍ.. فشكرته على وقفتِه بجواري.. أنهينا مكالمتَنا بالسلام والتحية.. أنا الآن تائهٌ يا صديقي.. وأغلق عيني لأرتاحَ من شرودي قليلًا (حنان) تكلمني بالهاتف وتقول لي أشياءَ عن أمي والله يا رفيقي لا أعلم ما رأيتُه حقيقةٌ أم خيالٌ..؟

وبالفعل لم يمضِ إلا وقتٌ قليلٌ واتصل بي الشيخ (عبيد) حتي يقابلني اليومَ فـي بيته لوحدي وبدون علمِ أحدٍ، فتعجبت من طلبه لكن ما بيدي حيله.. أخذت عنوانَ الشيخ (عبيد) فهو يقطن بأحدِ الأماكن الراقية ولم أتعجب.. رجلٌ في عمر الخامسةِ والخمسين لا يتقاضى نقودًا.. دخلت عمارةً راقيةً، وإذا برجل الأمن يسألني عن اسمي وعمَن أريد فقلت له:

- الشيخ (عبيد)

فقال لي :

- أتقصد الدكتور (عبيد)

فنظرت إليه وقلت:

- نعم.. فأنا لا أعلم أنه دكتور..!

فقال الرجل:

- نعم.. هو دكتور (عبيد) والشيخ أيضًا

فاستدعى رجلًا آخر معه بالأمن ليوصِّلَني إلي المصعد، وبالفعل طرقت الباب على الشيخ (عبيد) كما أُحبُّ أن أُطلق عليه فرحبَّ بي ودعاني للدخولِ إلي حجرةٍ أثاثُها ثمينٌ وبها شاشةٌ كبيرةٌ تتعدي الخمسين بوصةً وعرفني على ابنه (حمزة) وزوجتِه وجلست قليلًا لتأتي خادمةٌ تضع أمامنا بعضًا من البسبوسةِ الشهية وكوبًا من الشاي الساخن.. انتهيت من

شرب الشاي وتبادلنا بعض أطراف الحديث ثم استأذن الشيخ (عبيد) من أسرته ودخل بي ممرًّا به بعض التحف واللوحات الثمينة وفي آخرِ الممر حجرةٌ بابُها مُبطَّنٌ بالجلد الأسود وفتح باب الحجرة.. يوجد بها مكتبةٌ وكرسيانِ ومنضدةٌ صغيرةٌ وأريكةٌ بدون ظهرٍ مُبطَّنةٌ بلون الحجرة، والباب به مصباح بإضاءةٍ خفيضةٍ، والحيطان كالباب مبطنةٌ.. دخل بقلبي رعبٌ وفزعٌ ليطمئنني الشيخ (عبيد) ويقول لي:

- أنا معي دكتوراه بعلم النفسي.. أنا طبيبٌ نفسيٌّ يا (يوسف) لكنني أُدخل العلاجَ الروحي بالعلاجِ النفسيِّ.. فأنا قلت لك: إن البوابةَ قد فُتحت يا بني.. ولم أكذب عليك وسوف ترى ما لا تتخيله.. الآن بهذه الحجرة.. فلقد حدث بها علاجاتٌ لمرضى كثيرين.. وأنا مثلك يا (يوسف) ورثت مكتبتي عن والدي.. حتي هذا البيتُ وأيضًا مهنته فأنا مثلُه طبيبٌ نفسيٌّ أُدخل ما درستُه بالقرآن..1 هكذا أعالج المرضى التائهين في البوابة التي فتحت.. فقلت له:

- وكيف فُتِحت..؟!

تجاهل سؤالي لأنه يبدو ساذجًا من وجهةِ نظره وسألني:

- أسألك سؤالا يا (يوسف).. هل تصلي..؟

- بالتأكيد.. أنت تسألني دائمًا هذا السؤال يا شيخ (عبيد)

ليسأل بدون إجابه لي:

- تتمعن وأنت تُصلي أم عقلك تائهٌ.. هل تؤمن إيمانًا يقينيًا بالنصيب..؟

فلم أردَّ فقال:

- لقد تاه إيماننا؛ فكانت النساءُ بالماضي يرتدين ما شئنَ وكنَّا نغضُّ بصرانا.. أمَّا الآنَ فأرى الشباب ينظرون ولا يغضُّون في وقتٍ أصبحت النساءُ فيه أكثر حشمةً من ذي قبل..!

- لا.. هناك فتياتٌ يرتدين ما ليس بلائق..!

- يا الله.. ينظرون إلى فتياتٍ صغيراتٍ لم يتعدَّين العشرين.. ألم تكن الأنفسُ الآن مريضةً يا بني لقد تحول كلُّ شيءٍ.. أصبحنا نبحث عن المحرمات وتركنا الذهاب إلى الإيمان..

اسمع يا ولدي.. أريد أن أبدأ معك جلسه قبل والدتك..!

فقلت له:

- أنا...! لماذا..! وأنا لم أُعانِ من شيءٍ

فابتسم وقال:

- يا بني.. أنا أريد ذلك..

يا قلمي العزيز سأتترك لتخُطَّ على الأوراق بحِبرك؛ فلا تنسَ يا صديقي أننا اندمجنا معًا وسرت بالشريان كمجرى الدمِ.. أسرد ما يدور حولي..

سوف أدخل في غيبوبتي فأنا لا أعلم ماذا يحدث بهذه الجلسة..؟ لا يفوتك يا صديقي كلمة حتى نَفَسِي وشهيقي لا تتركُه حتى أقرأ ما سردته فأنا أعلم كم أنت بليغٌ يا صديقي العزيز..

- اسمع يا ولدي.. ارتَحْ على الأريكةِ، وسوف أقرأُ بعضَ آياتِ الرحمانِ، واستمع لها جيدًا واغمض عينك الحزينة حتي تندمج معي

- يا شيخ (عبيد) ماذا يحدث بعد ذلك..؟

- لا تتعجل يا ولدي..

سوف أكتب يا رفيقي (يوسف) كلُّ ما أسمعُه واعلم أنني رفيقُك، ولن أترك كلمةً أو حركةً حتى أدوِّنَها لك..

لقد قرأ الشيخ (عبيد) كلماتِ ربِّ العالمين من الكتابِ العظيمِ ذي الحاضر والماضي والمستقبل.. المنزل على خيرِ المرسلين – محمد – (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم) القرآن الشريفِ الكريم..

- يوسف.. ماذا ترى..؟

أنت تصمت يا (يوسف) ويسأل الشيخ (عبيد) مرةً أخري يا ولدي (يوسف) أنت ترى شيئًا ،قل لي.. ماذا ترى..؟

تردُّ يا (يوسف) وأنت تتصبب عرقاً كأنك تمشي أميالًا وتنهج وسأدون يا رفيقي حواركم، واعلم أنَّ جسدك يرتجف؛ فأنت

كالمحموم.. كان اللهُ في عونك يا رفيقي وعوني حتى أكمل بحبري..

- أنا أمشي بالصحراء وليس معي ماء.. أُحسُّ بالعطش

- هناك ماء البئر.. أمامك ألم ترَه

- نعم رأيته

- اشرب لترتوي

- شربت حتي اغتسلَ عنقي.. ما هذا..؟ إنها أمي.. أمي.. أمي

- ماذا حدث..؟

- إنها لا ترد

- اهدأ.. واذهب وراءها

- إنني الآن بالمقابر.. إنها اختفت يا شيخ (عبيد)

- اهدأ

- لا اله الا الله.. أنا أرى زوجتي وأُختي يُغسِّلون أُمي ومعهم فتاةٌ ملطَّخٌ وجهُها بالدماء.. ما هذا..؟ إنهم يُخرجون من فمِها ماءً أسودَ.. أمي تعوي وتنتفض لتضع أُختي وزوجتي وتُكبِّلُهم والفتاةُ ابتعدت.. إنها ليست أمي..! إنه شيءٌ آخرُ وجهُه كئيبٌ يملأُه الغضبُ والكره.. إنها تقترب مني..

إنك تتنهد الآن يا صديقي وتتعالى صرخاتك.. إنك تلوي قدمك ويدك.. إنك تتشنَّجُ يا صديقي الشيخ (عبيد) يقرأ كلماتِ اللهِ ويأخذ ماءً مقروءًا عليه يرميه على جسدك.. أنت تستعيد وعيك لكنك مغيَّبٌ ومذهول.. أنت تنظر يمينًا ويسارًا.. أنت تصرخ والشيخ يقرأُ القرآنَ.. أنت ترى آياتِ اللهِ مكتوبةً الآن على الحائطِ المجلدِ وتخبط رأسك وتتألم يا رفيقي.. كم أنت متعبٌ مما تشاهده؛ فأنا أتعذب لحالِك يا رفيقي.. كيف تتحمل كلَّ هذا..؟!

أنت تقعُ مغشيًّاً عليك يا صديقي.. الآن والشيخ ذهب مسرعًا من الحجرةِ.. إنه يدخل ومعهم رجلٌ طويلٌ عريضُ المنكبين حملك يا رفيقي إلى حجرة راقيةِ الأثاثِ.. نعم يا صديقي كم هو شاقٌّ عليَّ أن أُدوِّنَ بدلًا عنك فأنت يا رفيقي جعلتني مثلك يجري الخوف بداخلي.. اعتذر منك يا قلمي؛ لقد جعلتك تتحمل المشقة بدلًا عني..

سأكمل كلماتي الباقية إذا تبقَّى لي نفسٌ بعد ما رأيت..!

دخل الشيخ (عبيد) ومعه رجلٌ طويلُ القامةِ عريضُ المنكبين كما ذكرت يا رفيقي

- كيف حالك..؟

- أحمد الله

دكتور (أحمد) مساعدي

لأجد الدكتور (أحمد) يبتسم لي ويقول:

- أتأسف يا أخ (يوسف) لأنني تأخرت عليكم..

قصَّ الشيخ (عبيد) على الدكتور (أحمد) ما حدث وقال الشيخُ ضاحكًا:

- أتعلم يا أحمد: لماذا بدأت معه الجلسةَ سريعًا.. حتي لا يهرب مني..!

فضحك الدكتور (أحمد) وقال:

- كيف حالك يا بطل..؟

فأجبت وأنا مرهقٌ:

- الحمدُ لله.. لكنني متعبٌ قليلا.. فهل أستطيع الاستئذانَ..؟

فردَّ الشيخ (عبيد) بحبٍّ وعفويةٍ:

- لا.. فيجب أن نأكل معًا.. سوف يوصِّلك الدكتور (أحمد) بسيارته إلى بيتك

فقال الدكتور (أحمد) بخفةِ ظلِّه رغم شكلِه الجهم:

- أنا جائعٌ.. فإذا لم تُرد أن تأكلَ فأنت حرٌّ.. ستفقد نصيبك؛ فأنا أستطيع أن آكلَ المحيطَ الآن.

فضحكت مبتسمًا وواقفت على قدمي وذهبت إلى حجرةِ طعامٍ فاخرةٍ،

وتدخل خادمةٌ لتضعَ الطعامَ والسيدةُ وابنُها (حمزة) يأتون.. الكلُّ يجلس والدكتور (أحمد) لا يكفُّ عن الكلام والضحكِ، ويتكلم عن عملِه بالمستشفى وأنه يجب أن يتدخل العلاج الروحيَّ، لكنَّ العلم يقف حائلًا فلا يكون أمامه غيرُ العلاجِ بالكهرباءِ والدواءِ والجلساتِ النفسيةِ..

ليصمت الدكتور (عبيد) ويقول نحن نحتاج وقتًا طويلًا حتى يفهم العالمُ بأنَّ البوابةَ فُتحت وأنَّ هناك بشرًا لن يتحملواإزالةَ الساترِ عن أعينهم.. وأنا أستمع لهم بتمعُّنٍ لكنني وجهت سؤالا ما يُحيِّرُني:

- ماذا تعني: البوابةُ فُتِحَتْ..؟ لأجدَ الطبيب (أحمد) يقول لي: سوف تعلم بنفسك يا (يوسف).. فصمتُّ؛ فأنا متعبٌ، وبالفعل انتهيت من الطعامِ واكلت كثيرًا وشكرت السيدةَ والشيخ (عبيد) ونزلت مع دكتور (أحمد) ولم يكفَّ عن الضحكِ حتى أوصلني إلى بيتي صعدت سلالم منزلي؛ فأنا أقطن في الطابقِ الخامس بأحدِ مباني التسعينات التي لا يوجد بها مصعد، لكنني مجهدٌ والعرقُ يتصبَّب مني لأجد نفسي تائها بعالمٍ آخرَ كأنَّ أحدًا شدَّني من رأسي ليُلقيَ بي في مقبرةٍ وحيدًا فصرختُ ولا أحدَ يجيب.. لا اعلم ماذا أفعل الآن..؟! لقد شلت حركاتي لأجد رجلًا غريبَ الشكلِ يرتدي عباءةً رماديةَ اللونِ وله لحيةٌ قصيرةٌ وعيناه يطغى عليها البياضُ، فأنا أصرخ ولا أحدَ يجيب.. لأجد نفسي ملقىً في بئرِ السلم أبكي كطفلٍ، فأنا متعبٌ يا رفيقي.. هل أصابني ما أصاب أمي لأجد جارًا لي يُمسك بيدي ويأخذني إلي البيت، فطرقت الباب ولم تفتح زوجتي، فأخرجت

مفاتيحي وفتحت بابي ودخل وجلس ليعرفني على نفسِه بأنه السيد (إسماعيل) ويعيش بالشقة أمامي، لأجدَ شكلَه يتغير، وبابُ الشقة يُقفل بعنفٍ ليقولَ لي لن تستطيعوا أن توقفوا ما يحدث..! فيختفي لأجدَ زوجتي تصرخ من حجرتها لأذهب مسرعًا لأجد ثعبانًا كبيرًا يلتفُّ حولَها، فما كان أمامي إلا أن أقترب مسرعًا لأمسكه بيدي فيختفي فأخذت زوجتي في أحضاني حتي أهدِّئَ من روعها، ولكنها أخبرتني بأنه يومٌ عصيبٌ عليها.. تحدث فيه أشياءُ بالمنزل غريبةٌ؛ فدخلت حجرةَ مكتبي وأخذت كلَّ الكتب المتصلة بالسحر والجانِّ وذهبتُ إلي بيت الشيخِ (عبيد) رغم تعبي وإحساسي بأنني أفقد الوعي يلازمني وسلمتها للأمنِ واتصلت عليه وأعلمته ففرح بأنني فهمت ما كان يقصدُه، وذهبت إلى بيتي لأستلقي على فراشي ولم أستيقظ إلا ظهرَ اليومِ.. يا الله..! لقد نام جفني وعقلي وكلُّ من في البيت ناموا بهدوءٍ تامٍّ

نحن بصباحِ السبتِ وأنت تعلم أنها إجازةٌ رسميةٌ يا صديقي.. ذهبتُ للاطمئنانِ على والدي ورحلتُ عند المغرب ومرَّ اليومانِ قبل الجلسةِ بسلامٍ في بيتي وبيتِ أهلي، أمَّا أنا فلم أعد أرى ولا أسمعُ ما كان يتراءى لي من قبل..

الجلسة الثانية

نزلت من بيتي وذهبت بعد طول الطريق إلي بيت أمي وأبي فوجدت (حنان) حزينةً فألقيت عليها سلامي و عليهم جميعًا وطلبت من (حنان) أن نتكلَّمَ منفردين..

حنان تنظر لي نظره غريبة قلت لها: ما بك؟

فقالت:

- ألم تتصل بِ(محمد) وتخبره بأنني أخذت من ماله.. أنا لست بسارقة يا ابن أبي وأمي.. أنتم من تركتم حِملَ أمّكم عليَّ ونسيتم بأنكم رجالٌ، وزوجي يريد الارتقاء بنفسه وبنا وما العيبُ في هذا..؟ أخذت المال منه سلفًا وكان زوجي سيحضرهم، ولكنكم اتهمتموني بالسرقةِ واللهُ عالمٌ أنني كنتُ سأردُّهم عاجلًا أو آجالا

لأردَّ عليها بدون تفكيرٍ:

- ولمَ لمْ تقولي له..؟

- يا أخي لو قلت ما كان أعطاني أخوك قرشًا واحدًا، فماذا كنت أفعل..؟ أأترك الشقةَ لتضيع مني ..؟!

لأجد نفسي غاضبًا متسائلا: لمَ هذا التكبر..؟ تُخطِئُ وترفض الاعتراف بالخطإ..! لقد أعطاها أخي أمانةً، فكيف لها أن تخونَها فكانت يجب أن تقول له سواءٌ رفض أو قَبِلَ لتقطع تفكيري تسألني:

- بماذا تفكر..؟

قلت لها أفكر:

- بما نحنُ فيه يا بنت أبي وأمي

وسألتها:

- ماذا حدث أمس..؟ فردت بتعجب

- لا شيء

- كيف.. لقد اتصلتِ بي وكنتِ خائفةً من أن يحدثَ شيءٌ ما

- أنا لم أتصل بك.. أجننتَ مثل أُمِّك..؟

لتسألني والحيرةُ بعينيها والتردد يشوب كلمتها، فإنها لا تؤمن بالعالم الآخر ياصديقي..!

- لكن كيف علمت بأنَّ هناك خطبًا ما..؟ أصبحت حاوي فأنا لم أتصل بك أو أتكلم معك

فقلت لها:

- لا يهم، لكن حدث معك شيءٌ..!

- نعم..

فقلت لها احكي لي:

- رأيت أُمي جالسةً مع ابني تتكلم وتلعب معه وعند دخولي اختفت، فجُنَّ جنوني ولكنَّه وهمٌ..

- ليس بوهمٍ..! لمَ ابتعدتِ يا (حنان)..؟

- اسمع يا (يوسف) أنا أعلم بأنك طيبٌ، لكن لا تجرَّني إلى مسلسلك أنت وأمك.. أنا لا أومنُ بالعفاريتِ.. أنا ليس لديَّ وقتٌ للأحلامِ.. ابتعدوا بجنونكم عني

فطرق البابَ ياصديقي وقطع كلامنَا ودخل الشيخ (عبيد) والدكتور (أحمد) فسألا (حنان) عن حالِها وقال لها: قال (يوسف) لي بالهاتف: إنك رأيتِ شيئًا أمس فانزعجت بأنتها العاليةِ وكبريائها وقالت:

- أنا لم أكن منزعجةً ولم أتصل بهذا المجنون..! وتركت البيتَ غاضبةً وتتهمنا بالجنون والشعوذة

نظر الشيخُ (عبيد) لها صامتًا ودخل بخطواتٍ هادئةٍ ومعه دكتور (أحمد) وأمُّ (رحمة) تسبقهم لتفتحَ البابَ على أمي بعد ما جهزتها، وجلستُ بجوارِ أمي واستأذن الشيخُ الجميعَ في الخروج وطلب مني البقاءَ ومعي الدكتور (أحمد)

اسمع ياقلمي: لن أستطيعَ أن تقصَّ على الأوراقِ ما حدث، ولكن قم بالمشقة يا صديقي بدلًا عني؛ فسوف تنشلُّ أوصالي وأُصبح كورقةٍ مبتلةٍ إذا لم تجفَّ ستنتهي وانقل الحوارَ الغائب ببراعةٍ، فأنت المتقنُ يا رفيقي

وأنا التلميذُ المبتدئُ لعلَّ من يقرأ كلَّ كلمةٍ يحسُّ ويتألم كما تألمنا..

- كيف حالكِ أختي الكريمة..؟

- الحمد لله

- أنا أُدعى الشيخ (عبيد) وهذا الطبيبُ (أحمد) جئنا لنساعدك.. هل تذكريننا..؟

- نعم.. مرحبا بكم.

- الشكر لكِ.. استمعي لآياتِ اللهِ، وعندما أتوقف ستكون البداية.. مستعدةٌ..؟

- نعم

هذا هو الحوار يا صديقي.. لكنَّ أُمك ترتجف وفي عينيها القلقُ؛ فيطلب منها الطبيب (أحمد) أن تغلق عينيها أثناءَ قراءةِ القرآنِ.. الحجرةُ كئيبة وأنت ضعيفٌ.. لا أعلم ماذا بك يا رفيقي..؟ فإذا تركتني وحيدًا بعالمكم فرجلُ البشرِ ستكسرني أو سيتركونني مع طفلٍ صغيرٍ يلعب بي وينثر حبري على وجهه وملابسه.. أتعلم: أصبحت أثرثر مثلك.. سأكتب ما يحدث خارجًا حتى يكمل الشيخ القراءة..

أنا أرى أباك وعلى وجهِه علاماتُ القلقِ، والسيدةُ (فاطمة) وابنتُها يجلسون في صمتٍ كأنه شخصٌ يتحكَّم بهم.. الجميع مترقِّبٌ بخوفٍ..

بحزنٍ.. يا الله..! لمَ تجعلني أشعر بالصعب يا رفيقي..؟

أنا ابتعدت عنهم لأتركَهم مع الرجلِ الصامت يتحكم بهم.. ومعكم أنا الآن يا رفيقي.. انتهى الشيخ من القراءة وأمُّك يتصببُ منها العرقُ وتفتح عينيها يمينًا ويسارًا ليسألها الشيخ:

- ماذا ترين يا أم (يوسف)..؟

- أرى (يوسف) يبكي

لينظرَ الشيخ والدكتور (أحمد) إلى (يوسف) ليجدوا تائهًا الآن يطرق الباب ليدخل (محمد) لقد جاء من السفر فجاءةً.. هل اتصلت عليه يا (يوسف) أم أنَّ هاتفًا جاء إليه..؟كم كانت حكمةُ الله أقوى، ويشير له الدكتور (أحمد) بالجلوس لينظر أخوك إليك وأنت بعالمٍ آخر، ويستعيد الشيخ حديثَه مع أُمِّك

- اذهبي اليه وأساليبه

- لا.. لن أستطيع أن تقف بجواره امرأةٌ قبيحةٌ.. يا إلهي..! (محمد) يجلس بجواره

يا صديقي: الأمر أصبح مقعدًا.. أخوك أصبح مثلك.. ذهب إلى الذهول بعدما قرأَ الدكتور (أحمد) كلماتِ اللهِ والأدعيةَ حتى أصبح معكم والشيخ (عبيد) يلحُّ على أُمِّك بالذهابِ ليقول لها ملحًّا:

- يجب أن تذهبي أنتِ.. تتركين أبناءك لهذه المرأة

- أنا خائفة؛ فهي تنظر لي.. إنها تتقدم.. إنها تمسك بعنقي.. أختنق..

الشيخ يقرأ القرآن لتستفيقَ أمك ويقول لها أغمضي عينيكِ وافتحيها؛ فـأنتِ معنا.. أمُّك فاقت يارفيقي..

ليذهب إلى (محمد) ويسأل:

- أين أنت يا محمد..؟

- أنا مع يوسف

فيسأل الشيخ أخوك (محمد):

- هل توجد امرأةٌ قبيحةٌ معكم..؟

- نعم.. إنها أمامَنا

- هل تعرفها..؟

- لا أعلم

- أمسكْ بيدِ أخيك ولا تتركه وقل لي ماذا ترى..؟

- المرأة تعدو سريعا

- اذهبوا وراءها ولا تتركوها

- إنها تقترب من قبر وبيدها شعرٌ أسود ملفوفٌ على مسمارٍ طويلٍ ملأه الصدأ

- محمد خذ هذا الشعر منها..أنت قويٌّ أنا أعلم بهذا

- لكنَّ (يوسف) مغيَّبٌ

- اتركه.. إنَّ الله سيحفظه..

- أخوك (محمد) يتحرك كثيرًا على مقعده وأنت ملقىً يا صديقي..! ما بك..؟ لا أعلم ا

الشيخ (عبيد) يعاود الكلام مع (محمد) ويسأل:

- ماذا يحدث..؟

فيجيب (محمد) خائفًا:

- يتصاعد دخانٌ أحمرُ اللون.. أنا لم أستطع الرؤية

ليقولَ له الشيخُ (عبيد) مشجِّعًا له:

- الشيطانةُ تلعب بك يا محمد..!

أغمض عينيك وافتحها.. سوف يزول الغبار، واستمع لكلام الله، وعاود بأمره

ليتساءل الشيخ مستفسرًا.. انتهى الغبار يا محمد..؟

- نعم.. إنها رمتِ الشعرَ بعيدًا وبه مسمارٌ..! لكنها تقف أمامي

- اذهب بأمرِ ربك وكن الأقوى.. أنت حاجٌّ لبيتِ الله ومؤدِّياً لفروضه؛ فلا تخشَ يا ولدي.. أملي بك كثيرا.. اقرأ آيات الله وخذ الشعرَ والمسمارَ وأمسكهم بيدك

- أنا لم أجد (يوسف)..!

- اتركه الآن يا (محمد)

الشيخ (عبيد) يطلب من الدكتور (أحمد) أن يمسك بيدِ (محمد) أصبح الأمر شاقّاً الآن..! لقد تمتم الدكتور (أحمد) بشفتيه ببعض الكلمات، ثم أغمض عيني.. الأمر أصبح صعبًا يا رفيقي

- الآن رأيت (محمد) يا (أحمد)

- نعم..

- أمسك بيد محمد

- خذ منه الشعر والمسمار

- أخذته

- اقرأ ما تيسَّر يا ولدي و افعل ما علمتك إياه لفكِّ الربط

- أقرأ يا مُعلمي وقد أزلت المسمارَ من الشعر

- اذهب إلي البحيرةِ وأحضر ماءً طهورًا، واجعل (محمد) يغسل أوصال الشعر

- فعلت ما أمرت

- خذِ الشعرَ و سوف ترى رجلًا يمتطي حصانًا أبيضَ يرتدي عباءةً بيضاءَ عبدًا صالحًا.. أعطِ الشعر المغسولَ والمسمارَ لِ(محمد) ليعطيه إياهم

- أمرك معلمي.. لقد فعلت وأخذ المسمار والشعر

ليقول الشيخ لِ(محمد):

- محمد.. أمسك بيد أحمد وأغلق عينيك وافتحهما

وبالفعل عاد (محمد) والدكتور (أحمد) من الغيبة.. لمَ لا تعود ياصديقي..؟ يسأل أخاك كيف حدث هذا..؟ قال الشيخُ عبيد:

- لا تسأل يا ولدي؛ فسوف تجد الجواب قريبًا..!

ليتساءل أخوك وأمك خائفَيْنِ عليك يا رفيقي:

- يوسف ماذا رأيت يا بني..؟

- أنا جالسٌ أرى بشرًا ذاهبين وعائدين.. منهم من يرتدي الأبيض ومنهم الأسودَ.. أجدُهم يتصارعون كأنّهم في حربٍ..!

- إنه صراعك مع نفِسك يا ولدي

- أنا لم أجد أخي ولا أمي

- نعم.. لقد ذهبوا.. أغمض عينيك واتلُ ما تحفظه من كتابِ الله ثمَّ افتح عينك، لقد استعدتَ وعيك يا رفيقي، وأكمل عني: كم عانيتُ اليومَ..؟! خشيت أن أفتقدك يا رفيقَ دربي..!

يا الله.. أمي تجلس الآنَ معنا، والشيخُ (عبيد) تظهر عليه علاماتُ التعب فتساءلتُ وأنا متعبٌ منهكٌ لا أعلم ما بي..؟ ماذا يحدث يا شيخ عبيد..؟

ردَّ وهو يتنهَّدُ:

- لا أعلم يا ولدي ماذا أقول..؟! يجب أن تعلموا أنَّ البوابةَ التي أُغلقت فُتحت كما قلت لك سابقًا..! لبعد بعضِ البشرِ عن طاعةِ اللهِ، وأصبح السحرُ والاستعانةُ بالشيطان الرجيمِ وأبنائه وأعوانِه ملجأً لتنفيذ أغراضِهم..! وهذا ما حدث معكم

ليردَّ أخي مستنكرًا :

- ومن يفعل بنا ذلك..؟ فنحن لم نؤذِ بعوضةً..!

فقال الشيخُ:

- يا بُنيَّ ألا تسمع عن الغيرةِ أو الانتقام..؟ إنَّ مَن يؤذي.. يؤذي لسببٍ يوجد بجعبته..

ليسألَ (محمد) بسذاجةٍ:

- ومن فعل ذلك..؟

فردَّ الشيخُ ضاحكًا:

- سوف نعرف مستقبلًا يا ولدي مع العلاج، واعلم أننا كثيرًا ما ننجح وكثيرًا ما نفشل.. وكلُّ ذلك بأمرِ الخالقِ.. هل تكلم (يوسف) معك عن الجلساتِ..؟

ردّ أخي:

- نعم.. كلمني عنكم يا شيخ..

ليسألها الشيخُ متعجبًا: ولكن لمَ جئتَ..؟ فـأنت لم تخبر أهلك بقدومك..!

فقال أخي للشيخ عبيد:

- لقد رأيت أمي

لتردَّ أمي مقاطعةً لكلامِه:

- أنا حلُمتُ بأنني ذهبت إليك يا (محمد) وكنتَ تُصلّي وجلستَ أمام قدمي وقبّلتها، وأخبرتُك بأن تأتي لأنَّ أخاك لا يقوى على الحملِ وحيدًا..

ليتوجَّهَ الشيخُ بسؤال لأمي:

- تتذكرين شيئًا يا أختِ (أمينة) ليقطع الدكتور (أحمد) الحوار بعطسةً قويةٍ ليتأسف ويستحثَّ الشيخَ (عبيد) على الانصراف وأن يكتفي بهذا القدرِ، وبالفعل أيَّده الشيخ (عبيد) وقال:

- الحمد لله.. كذلك أفضلُ، ولكن لا تنسوا التقرب من اللهِ والابتعاد عن المعصيةِ حتي ولو كانت صغيرةَ.. ذهب الدكتور والشيخ وبقيتُ مع عائلتي وذهبتُ لفراش أمي لأنام لأجدها تتقدَّمُ نحوي لتستقرَّ إلى جواري وتضعني في حضنها الدافئ، وتقول لي: أفتقدتك كثيرًا يا ولدي، فقبلت يديها وذهبت في بحرِ النعاس ولم أُفق إلا في اليوم التالي لأجد (محمد) يفتح حقائبه ويوزع علينا الهدايا، ولم ينسَ (وفاء) فقد أعطاني هاتفًا محمولًا لها، وقلت له ألا يكفي هاتفي..؟ فقال: لا تتعجل البقيةُ تأتي فضحكت ليعطيني ملابسَ لأولادي ولزوجتي وعمَّ يومٌ سعيدٌ علينا جميعًا، وذهبت إلى بيتي.. أنت تعلم ياصديقي أنني لا أقدر أن أترك ما بجعبتي حتى اقولَه لك.. أنا متعبٌ أُحس بأنني منهكٌ القوى.. لا يهمُّ.. سوف أستردُّ عافيتي إن شاء اللهُ عندما أرى قُرَّةَ عيني وصغاري سعداء..! ودخلت منزلي لأجدَ زوجتي توبِّخني: كيف تتركنا نقلق عليك..؟ لولا أخوك ردَّ علينا من هاتفك أمس لكنتُ متُّ من القلق.. فقلت لها:

- آسف لك لكنني كنت متعبًا.. لقد أحضر لكِ هديةً.. فردت

فرِحةً: علمت.. قال لي أمس.. إنه أخي الصغير الذي لم تلده أمي؛ فهو بعائلتك.. فضحكت لها وقلت: أنا جائع.. فقالت بتردٍ يوجد لديَّ خبزٌ وفولٌ فابتسمتُ وشكرتُ اللهَ على نعمتِه لكنني قُلت لها أستحلفك بالله أن تضعي زيتًا ساخنًا ومعه ملحٌ قليلٌ ونصفُ ليمونةٍ، ولو أنّ لديكِ خُضرةً – أكرمكِ الله – فأحضريها لنا معه، فضحكت وقالت: أهذا ما تتمناه..؟ فقلت لها: لا.. انتظري.. البصل والعيش ساخنًا وصغاري وأنت تأكلون معي فابتسمت وقالت: نعم والله.. أنا جائعةٌ، ونزلت مسرعًا إلى عملي متأخرًا لأجدَ يومَ خصمٍ حُسِبَ من رصيد إجازاتي..لأجد أخي يتَّصلُ..

– أين أنت..؟

– كنت بالعمل يا أخي.. هل هناك خطبٌ ما..؟

– نعم.. لقد اتّكأت أمُّكَ على يدها فانكسرت

– كيف ذلك يا أخي..؟ أهذا يعقل..؟

– أمر الله يا يوسف..!

– ونعمَ بالله يا أخي.. أنا في الطريقِ إليك

اتصلتُ بزوجتي وحكيت لها ما حدث فطلبت مني أن أبقى حتى أطمئنَّ عليها، وبالفعل أخذتُ مواصلةً من عملي إلى المشفى لأجدَ أخي ينتظر بالخارجِ؛ فقال لي: أمي بغرفةِ العملياتِ، فالكسرُ كبيرٌ.. فقلت له: يا الله.. ربي أعلم بحالِها.. وخرجت أمِّي متألمةٌ وبقينا حوالي ثلاثَ ساعاتٍ وغادرنا المشفى وذهبنا لأجد أبي منتظرًا أمام المنزل قلقًا علي أمي فاستقبلتها (فاطمة) وابنتها (رحمة) وسألت (فاطمة) كيف حدث هذا قالت: لا أعلم كانت تقف وسندت علي يدها لأنها كانت ستقع، فسمعت صوتَ تقتقةِ العظامِ فصرخت من الإيلام..!

لأجد أمي تقول (حنان) من كسرت زراعي في هذا اليومِ المشؤوم، لقد كنت أشتكي منه.. كان يؤلمني ولم أبالي إلي أن ذهبت إلي غفلتي.. لا أنكر أن الألم خفَّ كثيرًا، ولكن كان هناك ألمٌ وكنت حريصةً على راحةِ يدي، ولكنَّ أمرَ الله.. كنت سأقع فأتكأتُ عليه.. فنظر أبي و(محمد) دون كلمةٍ منهما، فقلت: الحمدُ لله يا أمي أنك بخير فأرسل أخي (رحمة) لتشتري لأمي عصائر، وجاءت لتعطي أخي ما تبقَّى من نقودٍ .فرفض وقال لها خذيها يا ابنتي، ففرحت البنتُ كثيرًا وذهبت مسرعةً لتعطي لأمِّها باقي النقود، ومرَّت أيامٌ.. والحمد لله لم يحدث شيءٌ لأمِّي؛ فقد انتظمت في الصلاة كالسابق.. ولكن فجأةً رأت أمَّها تقول لها: لن ينتهي بعد وأنا أنتظرك ابنتي..!

فطلبت مني رقمَ هاتفِ الشيخ (عبيد) لتقصَّ عليه ما حدث، وبالفعل اتصلت به، فقال لها يا سيدتي نحن على مشارفِ الشهرِ الكريم؛ فيجب عليكِ الالتزام بالصلاةِ والعبادة فبهذا الشهر لن يحدث شيءٌ فإنَّ الله يحبس إبليسَ وأعونه، وأنا أعلم بأنَّ الأمر لن ينتهي بعد ولنا لقاءٌ بعد الشهرِ المباركِ.. أغلقت أمي الهاتفَ بعد ما حيَّتِ الشيخَ (عبيد) وشكرته

وأصبحت أُمي شديدةَ التقربِ إلى الله؛ فقد تركتِ الحوارَ مع النساءِ وأصبحت بين يدي الله.. الصلاة والقيام والعبادة.. لا أنكر فرحتي بهذا.. فأمي كانت تصلي وتسبّح لكنها لا تترك مجالسَ النميمةِ أعوذ بالله..

ذهبتُ إلي بيتي لأجد أمي تتصل بي لترحبَ بِ(وفاء) لن تصدق ياقلمي كم فرحت بأنَّ أمي رضيت عن زوجتي، وباركت لنا على الشهرِ الكريم.. اتفقت أمي مع زوجتي إنها ستأتي برفقةِ أبي وأخي.. وأن لّا تُحضرَ طعامًا لأنهم يحضروا الطعام جاهزًا قبل الإفطار، وهذا ما سيتولَّى أمره (محمد) أخي.

أولُ يومٍ في الشهرِ الكريم

جاءت أُمي وبيدها لعب لأولادي، وبالطبع فرحوا كثيرًا؛ فلم يكن

عندهم إلا لُعبٌ قليلةٌ.. على أيِّ حالٍ فأنت تعلم ياصديقي إنني فقيرٌ..!

أخذت (خديجة) (رحمة) وذهبت لحجرتها، أما (محمد) أخذ ولدي يلعب معه ولم يتركه وأنا أخذت أبي إلي شرفةِ المنزلِ؛ فهو يحبُّ السجائرَ ويخشى أن تراه أمي فيحدثَ شجارٌ..

وأمي تتكلم مع زوجتي وتتعالى الضحكاتُ، و(فاطمة)
ذهبت إلي المطبخ لتجهز ما أحضره (محمد)
ضرب المدفعُ وتناولنا التمرَ وقمنا للصلاةِ ثم أكلنا ما طاب ولَّذ من الطعام، وبعدها أجد أبي يضع بجيبي نقودًا قائلًا لي: أخوك يعطيك هذه النقودَ لكنه خشي أن لا توافقَ على أخذها.. بالطبع فرحت وعلمت بأنَّ اللهَ أعطانا الشدة لنجتمع.. أنا أراك الآن مبتسمًا.. محللًا أنَّ الحياةَ أصبحت ورديةً.. لا يا صديقي تمهل.. أنا لا آمنُ غدرَ الزمانِ.. وانتهي اليومُ ياصديقي والجميعُ فرِحين، وزوجتي سعيدةٌ لأن أمِّي رضيت عنها..

أتعلمُ: سوف أرتاحُ وغدًا لنا لقاءٌ يا رفيقي.. ومرَّ الكثيرُ من الشهرِ الكريمِ في العبادةِ والصلاةِ وصلةِ الأرحامِ المنقطعةِ .
اتصلتْ أمِّي بي لتعلمني أنها سترسل (محمد) لأخذ الأولادِ و(وفاء) إلى بيت (حنان) وأنا آتي بعد عملي إلي بيتها.. بصراحةٍ يا صديقي..

أخشي أن أُمانع فتغضبَ منِّي أمِّي فوافقت.. أنا أعرف طبعَ (حنان) وأعرفُ طبعَ زوجتي.. نعم نحن فقراءُ إلى اللهِ، ولكنَّ كرامتَها وعزَّةَ نفسِها أهمُّ ما في الوجودِ..

اتصلت بزوجتي:

- السلامُ عليكم.. كم اشتقت إليكم..!

- ونحن أيضًا.. كيف حالك الآن..؟

- أنا بخيرِ حالٍ.. هل اتَّصلت أُمي بكِ..؟

- نعم

- وما رأيك إذا لم تُحبي أنْ تعلَّلي بحملِك وحِملِ الأولاد..؟

- لا يا زوجي كفانا فرقةً.. فأُمُّنا تغيرت كثيرًا وكأنَّها شخصٌ آخر..

- الحمدُ لله

- يوسف.. أُمي تطلب أن نعيشَ معها دائمًا ونترك شقةَ أخي..

فإنها تقول لي إنها تحتاجنا بجوارِها..

- حبيبتي.. إنها أمي.. ولكن يجب أنْ تُفكري جيدًا حتى لا تندمي

- ما رأيك لو جلسنا فترةً من الزمن هناك إلي حينِ ولادتي.. وإذا عادت الأمورُ مثل السابق نذهب إلي بيتنا..

- كما تحبين.. فأمي لديها من يرعاها ويرعَى المنزلَ.. وستكونين سيدةً لا خادمةً.. فهذا قرارُك..

- اذهبي إلي حجرة.. المكتب وافتحي الدُّرجَ الأول، ومعك (خديجة) سوف تجد مفاجأته لها.

- ماهي..؟

- لا تتعجلي.. إنها أشياءُ للأطفال..

لنختمَ حوارنا بالضحكِ.. وأذهب لأُكمل عملي.. وعندما انتهيت من عملي اتصلت بِ(محمد) أخي لأطمئنَّ عليهم

- السلام عليكم يا أخي

- هل ذهبتَ لإحضارِ (وفاء) والأولاد..؟

- و أوصلتهم إلى بيتِ (حنان)

- وأنت..؟

- لا.. أنا أنتظرك أمام البيتِ لنصعدَ معًا

- عمومًا.. أنا في الطريق يا أخي، أتأمرُني بشيءٍ..؟

- لا

- نحن في بيتِ أختي

أخي رفض الصعودَ معي وتحجّج بمقابلةِ هامَّةٍ.. وتركني وذهبت.. طرقت الباب ولم يفتح لي أحد، أخذتُ هاتفي للاتصال بزوجتي لكنَّ البابَ فُتِحَ فُجاءَةً.. دخلت الشقةَ.. لم أجد فيها أحدًا؛ فنظرت إلى الخارجِ حتي أتأكَّدَ من رقمِ الشقةِ؛ فقد اعتقدتُ بأنهم نائمون أو يلعبون معي.. لا أعلم.. دخلت فقفل البابُ سريعًا وتبدَّل الأثاثُ وكلُّ شيءٍ وأصبحت في مقبرةٍ.. نعم.. لا تتعجب.. و وجدتُ ابنتي (خديجة) و(عمر) يلعبون بُدُميً مصنوعةٍ من عظامِ الموتى..!عندما

رأوني هربوا.. لا أستمع للأذانِ.. وينتهي كلُّ شيءٍ، وأجد نفسي جالسًا على إحدى المقاهي.. وأحدُ الشبابِ يُوزِّعُ تمرًا وعصيرًا للإفطارِ.. فاتَّصلتُ بزوجتي .

- أين أنتم..؟

- بالبيت.. ما بك..؟

- كيف..؟ محمد أوصلك إلي بيت حنان

- حنان..! سافرت صباح اليوم مع زوجِها وأولادِها لتقضي يومين عند أهل زوجها واعتذرت أمي لي..

- لِمَ لم تقولي لي..؟

- قلتُ لك.. ما بك..؟

- لا شيء..!

- هل ستفطرُ عند أُمِّي..؟

- لا أعلم

- ما بك..؟

- اقفلي الآن

لقد أنهيتُ مكالمتي بعصبيةٍ زائدةٍ واتَّصلتُ على الشيخ (عبيد) وقصصتُ عليه ما حدث..

- السلامُ عليكم يا شيخ عبيد .

- وعليكم السلام.. كلُّ عامٍ وأنت بخيرٍ

- وأنت بخيرٍ يا شيخ عبيد

وحكيت له ما حدث فقال لي:

- اسمع يا ولدي.. أنتم في كربٍ عظيمٍ.. آذيتم أحدًا يا ولدي..؟

- لا يا شيخنا

- لكنك لم ترَ شبحًا أو جانَّ..؟

- أخي رأيته قبل أن أصعدَ الشقة، البابُ لم يُغلق بعد.

- نعم.. لكنَّك وجدت نفسك بالمقهى فجأةً

- نعم

- كنت تحلُم يا ولدي.. أنت تحتاج إلي الراحةِ..

ولا أُنكر أنَّ هناك ظلمًا حدث لواحدٍ من البشر، وهذا عقابٌ لكم.. سوف أراك عن قريبٍ يا (يوسف) ولكن اتصل بأخيك وتأكد منه أوَّلًا.

وأغلقتُ الخطَّ مع الشيخ (عبيد) لأتَّصل بأخي منكرًا كلَّ ما حدث.. إنه حلم لا أكثر.. والإرهاق الذي أمر به.. أو أنني جُننت.. لا أعلم.. وسألته عن أُمي.. فأكد لي بأنها بخير حالٍ، ومرَّ الشهرُ الكريمُ بخير، ولم يحدث شيءٌ آخرُ؛ فذهبت مع زوجتي وأولادي لبيت عائلتي أوَّلَ أيامِ العيدِ وزفَّ أخي خبرَ خطوبته ويريدني معه غدًا. فوافقت بالترحيب.. ووصلت زوجتي وصغاري إلي المنزل، وارتحت بفراشي قليلًا استيقظت لأجد نفسي بمقبرةٍ وأبنائي يلعبون

بِالدُّمَى العظميةِ، ويعْدُون وأنا أنادي وأعدوا وراءهم، وهم يلتفتون إلى ويضحكون، وفُجاءةً أجد نفس المرأة، ولكن معها سيدةٌ وفتاةٌ شابةٌ مملؤةٌ بالدماءِ، وكلماتٌ تُكتَبُ بالوعدِ والهلاكِ لأهلي.. وفُجاءةً يرمي أولادي الدُّمَى أمام قدمي ليظهرَ لنا ثعبانان أمامي.. لا أجد زوجتي وأبنائي واقفون أمامي وأنا على الأرضِ مذعورٌ وعيوني يملؤها الخوفُ، فتُهدِّئُ زوجتي مني وتساعدني للوصولِ إلي الأريكة، وتعطيني كوبًا من الماءِ محلًّىً بالسكرِ، وتأخذ هاتفي وتتكلم مع الشيخ (عبيد) وما هي إلا ساعةٌ واحدةٌ يا صديقي حتَّى جاء الشيخ (عبيد)

- السلام عليكم يا ولدي، ماذا حدث..؟

- رأيت نفس الشيءِ.. المقابرَ، لكن اليوم رأيت امرأتين وفتاةً

- الحمد لله

- تعرف أحدًا منهم

- لا أعلم

- فكانت الفتاةُ والسيدةُ وجهُهم مغطًّىً بالدماء

- اسمع يا ولدي.. أنتم ظلمتم أحدًا يريد الانتقام منكم وسأكرر الكلام دائما.. ابحثوا في طيَّات الماضي..

- أنا لم أظلم أحدًا

- يمكن أن يكونَ أخوك.. أمك.. أبوك.. أختك

- لا أعلم يا شيخنا

- يجب أن تجلسَ مع أهلك وتتكلم معهم، لأنّ الأمرَ سيزداد سوءًا، هناك ظلمٌ وأمامه انتقام

- أخي (محمد) سوف يقرأُ فاتحته اليوم

- مرحبا .

- متى ستذهب..؟

- بعد العشاءِ إنشاء الله

- وفقه الله، استأذن وانتظر مكالمتي لتحديد الجلسة القادمة

- أشكرك يا شيخ (عبيد) على صنيعك معنا

- الشكر لله.. السلام عليكم

ذهب الشيخ يا رفيقي، وأكملت يومي مع أسرتي إلى أذانِ المغرب، ثمَّ ذهبت إلى الحمام لأغتسلَ وأرتدي ملابسي، لأجد المقبرةَ مرةً أخرى أمامى، والفتاةُ تمسك بشعرِها وتُقطِّعُ فيه وتبكي وهي تقول أخوك وأمك..؟ لأجد نفسي متوجِّهًا إليها طوعًا غيرَ خائفٍ، لأ تحقَّقَ من وجهها، لكنَّ الدماءَ تغطِّيه كاملًا، لكنَّ دموعَها تغسلُه، أنا أُشبِّهُ عليها.. أعتقد بأنني رأيتُها يا صديقي.. فطرقت زوجتي الباب:

- محمد يتصل

فتحت البابَ وارتديت ملابسي سريعًا وذهبت إلى بيتِ العروسِ؛ فهي لا تبعدُ كثيرًا عن بيتي .

الجميعُ مُبتسمين وفرحين.. انتهى اليومُ وذهبت إلى البيت..

ما قبلَ الجلسة:

صباحُ اليومِ مشرقُ الشمسِ تُطلُّ من نافذتي لتعلنَ بحبٍّ عن يومها..

ذهبت للوضوء لصلاةِ فرضي قبل نزولي إلى العمل.. وقفت لأشتري سندوتشات الفول الساخنة من عربةٍ تقفُ بالقربِ من عملي.. دخلت وارتديت ملابسَ العمل.. طلب مني المديرُ أن أوصِّلَ بعضَ الأوراقِ لأحدِ موظفي الشركةِ في السكرتارية، فأخذت الأوراقَ لأجدها تحوَّلت إلى جلودِ ماعزٍ مرسومٍ عليها نجمةٌ وأرقامٌ.. وأقف أمامَ رجلٍ يجلس على كرسيٍّ عفنٍ ويمسك بيده قلمًا ويكتب بدماءِ ماعزٍ كلماتٍ لا تُفهم ويَنظر لي وأنا أتعجَّب؛ فأنت لنا من قديم الأزل

أُبدِلَ كلُّ شيءٍ فُجاءةً، واهتزتِ الأرضُ تحت قدمي لأُفيق وأنا ممسكٌ بالأوراقِ أمام الموظَّفِ الذي أرسلني له المديرُ ليقول لي بغضبٍ وحنقٍ شديد:

- ما بك..؟ أعطني الأوراقَ واذهب لتصنعَ لي كوبًا من الشاي.

ذهبت من أمامه ولن تنتهي طلباتُ الموظفين..! لأفاجَأَ بذلك الرجلِ يعتذر لي ويسألني بتودُّدٍ:

- ما بك.. لِمَ أراكَ شاردًا..؟

فلم أُجبه.. فقال

- دعني أُبشِّرك.. لقد تم قبوُلُ أوراقك لإعادةِ الثانويةِ العامة..

- حقا..؟!

- اخرج من شرودِك الآن.. نعم.. أنت تستحقُّ الخيرَ يا (يوسف) لكن احرص علَى أن لَّا تنسى الحلوى، فأنا من قدَّم أوراقك، وأنت تعلم كم عانيت في ذلك..

- نعم.. أنا تحت أمرك

وانتهى يومُ العمل بخبرٍ مفرح..
اتصل بي الشيخ (عبيد) لتحديد ميعادِ الجلسةِ غدًا، فاتصلتُ بِـ(محمد) وأعلمته بميعاد الجلسة..
وذهبتُ إلى بيتي ومعي حلوى لأولادي، و قهوةٌ جاهزةٌ لزوجتي؛ فهي تحبُّها.. وأنا أتناول الغداء رأيت نفسي على طاولةِ طعامٍ في بيتٍ آخرَ، والفتاةُ والمرأةُ زالت عن وجهَيْهِما الدماءُ قليلًا، فأصبحا أكثرَ وضوحًا.. كان الطعام كثيرًا والجميع يضحك..
هل تعلم من كان على الطاولةِ..؟ (محمد) وأمي وعروسه وأهلُها وزوجتي وأبنائي وأبي.. لأجدَ الفتاةَ تعطي لأولادي وأولادِ أختي عرائسَ من عظامِ الموتى وتختفي وينتهي كلُّ شيءٍ لأجد نفسي على طاولةِ منزلي أمام زوجتي وأبنائي، ونظراتُ زوجتي تأكل

وجهي لتسألني:

- ما بك..؟

- لا شيء.. الحمد لله

- إنك لم تأكل شيئًا

- لا.. الحمد لله

- يوسف.. لقد زئلتَ..! لا يصحُّ هذا..!

تركتها تعطي النصائحَ للحيطان.. فأنا متعبٌ لا أبالي حتى بنفسي.. فقد أويتُ إلى فراشي ودخلت في نومٍ عميقٍ لم أستيقظ منه إلا صباحَ اليومِ التالي.

يوم الجلسة:

استيقظتُ مبكرًا.. صليت فرضي ونزلت إلى عملي؛ فالمسافةُ بين العمل والبيت لا تقلُّ عن ساعةٍ بسببِ زحام الطرقِ.. لو ترى يا صديقي كم يبلغُ عددُ السياراتِ بالطريق..! لتعلمَ أننا نتحرك مثل

السلحفاةِ..! وصلت إلى العملِ مبكرًا، وارتديت ملابسي وغسلت الأكوابَ جيدًا، ونظّفت المكاتبَ.. لأجدَ زميلًا لي.. لا تتعجل.. فهو فرَّاشٌ مثلي، لكنه أفضل مني عند الموظفين لأنه يُلبّي كلَّ احتياجاتهم، أمَّا أنا فالفرَّاشُ ..الغلبانُ قليلُ الحركةِ.. يعطونني الحسنةَ وأرفضها؛ فكبريائي يمنعني يا صديقي من أن آخذَ الحسنةَ.. أراك متعجّبًا حينَ أمدُّ يدي لأهلي.. أمي قالت جملةً لكنها ليست دقيقةً .. قالت: أنت تأخذ منَّا المالَ لتعفَّ زوجتك.. لا ياصديقي..! أنا كنتُ آخذ منهم المالَ لأُعفَّ كرامتي أمام نفسي أولًا، وأيضًا لإحساسٍ مني بأنه حقي.. لأنها تعطي كلَّ شيءٍ لِـ(حنان) فلِمَ أمدُّ يدي للغريبِ والقريبُ معه ليعطيَني..؟! لم تقتنع.. صحيح..؟ أنت تراني مغرورًا..غيرَ راضٍ بالفقرِ، أو العلَّة..؟.نعم.. صدقت.. كفاني ثرثرةٌ معك.. أنت تستخرج أسوءَ ما في خُلُقي.. استمع فإنَّ الهاتف يرن.. الشيخ (عبيد)

- السلام عليكم يا شيخ عبيد

- وعليكم السلام

- أنهيتَ عملك..؟

- نعم يا سيدي

- أنا منتظرك؛ فأنا جالسٌ مع محمد

- أنا أمامي ساعةٌ واحدةٌ
يا إلهي.. أسمعت..؟ سوف يفوتُنا جزءٌ من الحديثِ جعلتني أثرثرُ معك وأنسيتني ميعادَ الجلسة.. يا جنونَ عقلي..! أيستجيبُ (محمد) لطلبي ويترك الهاتفَ مفتوحًا لأستمعَ لحوارِ الشيخ (عبيد)..؟ لا أعلم.. سأتصل به وأرى

- السلام عليكم يا أخي

- لِمَ تأخَّرتَ.. الشيخ بانتظارك

- حنان حضرت..؟

- نعم.. جميعُنا منتظرُك

- الشيخ يتكلم في أيِّ شيءٍ يخصُّ أمي..؟

- لا.. لكنَّه يريدني على انفرادٍ، وهو يتكلَّم الآن مع (حنان) منفردَيْنِ مع زوجِها

- تستطيع أن تُشغِّلَ ميكروفون الهاتف وتدخله لأستمعَ إلى ما يدور..؟

- لِـمَ..؟

- أنا أُدوِّن كلَّ ما يحدث يا أخي.. لعلنا نجدُ إجابه

- سأفعل..

ذهب أخي وأحضر مثلجاتٍ، وطرق البابَ وقطع الحديثَ ووضعَ المثلجاتِ وأقفل نورَ الهاتفِ وتركه وخر،ج وأنا الآنَ أستمع.. فلتُدوِّنْ يا صديقي.. أسمع صوتَ الدكتور (أحمد) يتكلم مع زوجِ (حنان)

- ألم تلاحظ شيًا غريبًا في منزلِك أو في منزل حميك..؟

- لا

- و زوجتك..؟

- حنان..لا طبعًا

ليقول الشيخ (عبيد) أغمض عينيك و سأقرأ آياتٍ من كتابِ

الله، وأنت تستمع... فإذا رأيت شيئًا فلتعلمْني، ولم أسمع زوج أختي يعترض على شيء.. أنهى الشيخ القراءةَ، وقال الحمد لله لم يصِبك سوءٌ.. ثمَّ يوجِّهُ كلامَه لِـ(حنان)

- سأفعل معك نفسَ الشيء

- نعم.. أتفهَّمُ لكنني لا أُومنُ بما تفعلُه

- إذن: انتهت جلستي قبل أن تبدأ معك

فقال زوجُها ضاحكًا:

- أنت تعلم أنها طبيبةٌ.. ليست جاهلةً مثل (يوسف)

- والله (يوسف) خيرٌ عندي من ألفِ رجلٍ وامرأةٍ.. وسوف أعرِّفُكِ بنا أيتها العالمةُ أنا دكتور (عبيد) وهذا الدكتور (أحمد) طبيبانِ نفسيانِ بإحدى المستشفياتِ العامةِ ليردَّ الدكتور (أحمد) غاضبًا:

- الدكتور (عبيد) ليس فقط طبيبًا، ولكنه أستاذٌ يُدرِّسُ في الجامعة.. نحن لسنا أقلَّ منك علمًا أيتها الطبيبةُ.. لِمَ جئتِ إلى هنا إذا كنتِ لا تؤمنين بما نفعله..؟

- جئتُ لأشاهدَ الجهل

فسمعتْ بابَ الحجرةِ فُتِحَ وعمَّ الصمتُ.. يا إلهي.. أخشى أنْ يُغادرَ الشيخ (عبيد) سوف أتَّصل به..!

- الشيخ عبيد.. أنا في الطريق

- لا.. فأنا سأغادر

- لا.. أستحلفك بالله ألَّا تغادرَ.. أمامي خمسُ دقائق

- أنتظرك خارجًا يا يوسف مع أحمد

- لا يا شيخ عبيد.. لا يصحُّ.. أعطِني محمدًا

فلمَّا تواصلتُ مع محمدٍ قال:

- لا أعلم ماذا حدث..؟

فقصصت عليه ما حدث من (حنان)

فقال لِـ(حنان)

- الفيلم السينمائيُّ انتهى غادروا مكانَ العرض

وغضب زوجُها من كلامِ محمد؛ إلى أنْ حاول الاعتداءَ على أخي بالكلمات.. لكنَّ الدكتور (أحمد) وقف أمامه، وقال له ابتعد عن (محمد) فابتعد لأجدَ (محمد) يفتح بابَ الشقةِ ويقول لهم انتهى العرضُ، فتخرج (حنان) بالسبابِ واللعان علينا جميعًا حتى أبي لم ينجوَ من الإهانة..! عيني جاءت في عينيها وهي تركب سيارتَها الفاخرةَ، فنظرت لي نظرةَ الاحتقارِ المعتادةَ، وركبت سيارتها وأسرع زوجُها بالقيادة.. ودخلتُ لأجدَهم جالسين جميعًا وأُمِّي الغائبةُ الحاضرةُ، فاستقبلتُ تليفونًا من (حنان) تتوعَّدُني بأنْ إذا حدث مكروهٌ لأمي فلن تتركَني أهنأَ، وأنَّ السجنَ سيكون نصيبي وأغلقتُ في وجهِها الخطَّ.. ولِمَ لم تَعرِضِ الطبيبةُ أمَّها على أحسنِ الأطباء..؟! لا.. فهي تريدها هكذا ضعيفةً مستكينةً حتي تعيشَ حياتَها.. فإنها ترفض الآن أنْ تتدخل أُمِّي في حياتها، أَمِ العالمُ الجديدُ الذي تعيش فيه لا تتَّسعُ جدرانُه لامرأةٍ بسيطةٍ كأُمِّي بكلامِها وانفعاليتِها..؟ يا لها من جبارةٍ، متكبرةٍ،عنيدة..! سامحكِ اللهُ يا أمي.. لم تُراعي زرعتَك حتى مالت، وسامح اللهُ زوجَها لأنَّه يعجبُه ميلُ زرعةِ أُمِّي..! اترك الآنَ (حنان) فنحنُ جميعًا مائلون، لكننا نرى أخطاءَ غيرِنا ونضع على أعيننا الغبار حتى لا نرى أخطاءنا..!

دخل الشيخ (عبيد) حجرةَ الضيوفِ وأحضرنا أنا و(محمد) و أمي وجلسنا بجوارها، وجلسَ الدكتور (أحمد) على الكرسيِّ المجاورِ لمحمد؛ فطلب الشيخ مني الابتعادَ وأمرَ الدكتور (أحمد) بالجلوس إلى جوارِ (محمد) وأُمِّي، وبالفعل تركتُ الأريكةَ وجلستُ على الكرسيِّ المجاورِ للشيخ (عبيد).

بدأت الجلسة:

قرأَ الشيخ (عبيد) آياتٍ من كتابِ اللهِ وبعضَ الأدعيةِ وتمتماتٍ لم أفهمها..! ليفقدَ أخي وأُمي والدكتور (أحمد) وعيَهم وأنا أنظر للشيخ ولهم منتظرًا حدوثَ أمرٍ خارقٍ للعادةِ؛ فأنا أُحسُّ بك يا صديقي وبتساؤلِك: لِمَ لمْ يجعلني جزءًا من الحدث..؟ أنا وجدت الإجابةَ لاحقًا.. سأقول لك.. فلا تتعجَّل مثلي، واجعلني أُكمل ما حدث ولا تُقاطعْ كلماتي؛ فأنا لا أحتمل يا صديقي..

بدأَ الشيخ (عبيد) يسألُ أمي

- ماذا ترينَ يا أختِ (أمينة)..؟

- أرى نفسي في مدينةٍ في أوساطِ جبلٍ..!

- ماذا تفعلين هناك..؟

- أشتري ذهبًا لِـ(خديجة) ابنةِ (يوسف)

- هل معكِ (محمد، وأحمد)..؟

- نعم.. إنهما ينتظراني

- اذهبي الآنَ واتركي الصاغةَ

- محمد.. أمسك بيدِ أُمِّك يا ولدي

- مسكت بيديها، وأحمد واقفٌ بجواري، وأنا أسيرُ الآنَ وأجدُ فتاةً تقترب

- هل ترى وجهَها..؟

- نعم..

- من تكون..؟

- إنها خطيبتي السابقةُ (شهد)..!

- تكلَّم معها

- لا.. فأُمُّها تقف، ومعها امرأةٌ غريبةُ الشكل

- هل تعلمين من تكونُ هذه المرأةُ يا أختِ (أمينة)..؟

- نعم.. إنها من صنعت لي السحرَ لأمرضَ حتى الموتِ وينعتني الناسُ بالجنون..!

- أحمد.. أبعدهم عن المكان

أغمضوا أعينَكم وافتحوها بأمرِ الله .
وبالفعل أفاقوا يا صديقي.. لقد عرفنا: ماذا يحدثُ.. أُمُّ خطيبةِ أخي السابقةِ هي مَن صنعتِ السحرَ لأُمّي انتقامًا منها .

ليسألَ الشيخُ أُمّي عن (شهد) لتجيبَه:

- إنها طيبةٌ ولكنَّها فتاةٌ طموحةٌ..!

- أهذا عيبٌ يا أُمَّ محمد..؟!

- لا.. لكن (حنان) رأتْها تستصحِبُ شابّاً ذاتَ مرَّةٍ..! وأنا لا أنكر أنَّ هناك مشاكلَ بسيطةً كانت تحدث في أيِّ خطبةٍ، وكنت غاضبةً منها ولا أريدها لابني، ولكنّي لم أذهب عندها ولم آخذ شيئًا و(محمد) كان يتَّصل بها، فكيف تتَّصل به وتعرفُ غيرَه..؟

- يا سيدتي.. هناك مشاكلُ وبُعدٌ من الطرفين

ليسألَ الشيخُ متعجِّلًا أمي وفي وجهِه علاماتٌ من الضيقِ:

- المهم.. ماذا حدث بعدها..؟

- اتصلتْ (حنان) على (محمد) وقصَّتْ عليه ما حدث، فاتَّصل بزوجِ أختِها وقصَّ عليه الخبرَ وأنه يريد شبكتَه وهداياه، وللأسفِ علمتُ من جارتي أنَّ ما حدث بينَ أهلِ تلك الفتاةِ وزوجِ أُختِها من المشاكلِ على أثرِ تدخُّلِه في تلك المسألةِ أكبرُ من أنْ يُوصف

- لا إله إلا الله..! وأنتِ ماذا فعلت..؟ تكملتِ عن الفتاةِ مع من..؟

- مع جارتي

- يا الله..! تكملتِ في حقّ الفتاةِ وبالتأكيد قد أسهم هذا في التشهيرِ بها وفي ضياعِ سُمعتِها..! لاعتقادِ الناسِ بأنها سيئةٌ، كما أحدثتِ فُرقةً بينهم وبينَ زوجِ ابنتِهم..! فردَّ أخي متأسفًا:

- فعلًا.. إنَّ الفتاةَ استصحبها شابٌّ ذلك اليومَ، هو ابنُ خالتِها الذي قابلها محضَ صدفةٍ وسلَّمَ عليها لا أكثر، وهذا ما عرفتْهُ أُمي عن طريقِ أُمِّها حينَ أخبرتها بذلك إحدى جاراتِنا بعد ذلك، وأنها أوذيت كثيرًا ولم تذهب إلى الجامعة بعد ذلك عقابًا لها وأنَّ والدَها أرسلها لعمّها..

- أمُّ الفتاةِ تكلَّمتْ معك بعد ذلك..؟

- بعدها بفترةٍ طويلةٍ قبل تعبي بيومٍ جاءت إلى بيتي لتبرِّرَ لي أنَّ ابنتها طيبةُ الطبعِ، وجلست وتكلمت وقالت لي:

- ألا تقومي معي بواجبِ الضيافة..؟!

فقلت لها:

- نعم.. سأصنع لكِ شيئًا.

- فقالت لي:

- ارتاحي وسأصنع أنا.. وبالفعل صنعت لي عصيرًا، وقامت بوضعِ بعضِ اللبنِ عليه، وفي اليوم التالي حدث ما حدث..!

- هل لديها صورةٌ لكِ..؟

- لا أعلم

- هل خُطِبتْ الفتاةُ أو إحدى بناتِ هذه المرأةِ..؟

- للأسف.. لا أعلم

انتهتِ الجلسة، وعرفنا من قامَ بعملِ السحر لأمي وأخي.. لقد تعذبوا بالكلام فعذبوا بالسحر.. (محمد) أخي حزينٌ مما سمعه، لكنها الحقيقةُ..! ذهبتُ مع الشيخ (عبيد) في سيارة الدكتور (أحمد) وقال سيُعافي اللهُ أُمَّك، ونسألُه له العفوَ والعافيةَ حتّى يحينَ موعدُ جلستِنا القادمةِ.. أُمّك تحتاج إلى جلسةٍ أخرى حتى نُنهي هذا السحرَ اللعينَ.. فقد شربته أُمّك شربًا..!

فقلت له:

- ولكنَّ أُمي متعبةٌ، وكلَّ يومٍ يزيد التعب..

فقال: إنَّ اللهَ معها ما في اليدِ حيلةٌ..! فقال الشيخ (عبيد) ناهيًا كلامَه:

- سوف أتَّصل بك لنحدّدَ موعدَ الجلسةِ القادمةِ.. ونزلت إلى بيتي وسلمت على أسرتي ودخلت لأغتسلَ وتمنيتُ أن أغتسل من الداخل قبل الخارجِ لأقفَ أمام المرآةِ ناظرًا إلى عينيَّ فأجدَ نفسي باكيًا فتوضَّأتُ واستعذتُ من الشيطانِ الرجيم في سرّي وخرجت صليت وارتميت على فراشي.. ليجيءَ الليل ومعه قلقُ الضعيف.. يجعلني أفكُّ جفني بالسوادِ القاتمِ لأرى أمّي تودّعُني وتقول لي: اطلب من أُمِّ (شهد) أن تسامحني.. وأنا أسامحها يا ولدي.. جميعنا مخطئون.. جميعنا مذنبون.. لا أعلم ماذا يحدث لي.. لمَ أرى كلَّ هذا..؟ فاستيقظت وكانت الساعةُ الثانيةَ ليلًا، فاتَّصلت بالشيخ (عبيد) وقصصتُ عليه ما رأيت وسألته: تسلَّل السحرُ إلى أُمّي وأخي؛ فماذا عني..؟ فقال:

- لست وحدك هكذا.. هناك الكثير.. أنا قلت لك: إنَّ البوابةَ قد فُتحتْ وأنت وغيرُك تقفون خارجًا، فأنتم لا تستطيعون الدخول.. الشيخ يقول كلامًا مبهمًا لا أستطيع فهمَه..!

انتظرتُ الصباح يشقُّ طريقَه لأذهبَ مسرعًا إلى بيتِ أهلي لأجد أمّي متعبةً ومرهقةً و(محمدًا) أخي نائمًا والسيدةَ (فاطمة) وابنتَها

(رحمة) يجلسون بجوارِها؛ فأحضرت لها قطعةً من الفاكهةِ وأطعمتُها كطفلةٍ، وكانت تقول لي كفَى يا ولدي لا أستطيع.. فأعطيتها عصيرًا أحضرته معي لها فأخذَتْ رشفةً واحدةً، وقالت لي: أحتاج ماءً باردًا فهُم يعطونني ماءً ساخنًا، فأحضرت قطعةً من الثلجِ ووضعتها بالماءِ لأُلبّيَ رغبتَها؛ فأنا أُحسُّ بأنَّ روحَها تلفظُ أنفاسَها الأخيرةَ وأنَّ ستُسلِّمُ وديعتَها إلى الذي برأها.. وتلك هي الأمنيةُ الأخيرةُ، فرفضتْ أن أسقيَها بيدي وأخذتِ الماءَ لتشربَ بنفسِها حتى ارتوت, فأدرتُ الهاتفَ بالقرآنِ، لتقول اجعل والدَك يقرأ بصوتِه يا (يوسف) فناديت على أبي ليقرأَ لها ما تيسَّرَ من سورةِ (الرحمان) وما أنْ فرغ أبي من القراءةِ حتَّى صعدت روحُها إلى جوارِ ربِّها يا صديقي، بعد أن رأيتُها ترفعُ سبَّابتَها وهي تنظر للسماء وتنطق الشهادتين لينقطعَ في صدرِها آخرُ أنفاسِها، فألقيَ بنفسي في أحضانها وأصرخ كالنساءِ لأجدَ أخي يأخذني بين ذراعيه وأنا ألومُ نفسي وأقول:

- أنا الجاحدُ الأناني..! أنا العالةُ الضعيفُ منكرُ الجميلَ؛ فقد راعتني ولم أرعَها.. ذهبتِ يا طفلتي التي لم أنجبها وأنجبتني.. ذهبتِ بجسدِك النحيلِ إلى الترابِ وأنتِ روحك تتألم.. قُتلتِ بالسحرِ.. هل أنتِ شهيدةُ العالمِ الجاهلِ..؟ قُتلتِ وأنتِ ترين العذابَ والهوانَ.. أبي يقطع أنيني على نفسي ليقول:

- إكرامُ الميّتِ دفنُه.. ربطوا أصابعَ قدمكِ وضعوا الغطاءَ على

وجهك.. لن أراكِ ثانيةً..

أستتركينني وحيدًا والعِللُ تسكن روحي..؟

تتركينني شريدًا في سحرِ العبادِ ألتوي..؟

تتركين الطفلَ الشابَّ الذي كان من قسوتك في حنانِك يحتمي..؟

اغتسلي وتعطّري بالمسكِ؛ فلنا لقاءٌ في الآخرةِ..

ذهبتِ وأنا من يحملُ نعشكِ.. كم هو خفيفٌ..! يجري بنا مشرعًا يا حبيبتي؛ فلِمَ تستعجلين..؟ أعلم أنك رأيتِ ما زهَّدكِ في حياتنا البائسةِ..! لقد أهالوا الترابَ على جسدك يا حبيبتي..

جاء البشرُ يا صديقي يبكون يُقدِّمونَ واجب التعزيةِ.. فقد ذهب النفيسُ ولم تتبقَّ غيرُ اللحود..

انتظروا الجزء الثاني ..